SMALL MOCKINGS

سخريات صغيرة

تولستوي

دستويفسكي

توماس هاردي

سومرست موم

ستيفان زفايج

ساكي

تقديم

سيّد قطب

OPUS PUBLISHERS

www.daralrafidain.com

121

سـخـريات صـغـيـرة

سخريات صغيرة
Small Ironies

ترجمة: محمد قطب
الطبعة الأولى، لبنان/ كندا، 2017
First Edition, Lebanon/Canada, 2017

سخريات صغيرة

ترجمة

محمد قطب

تقديم

سيّد قطب

تولستوي

دستويفسكي

توماس هاردي

سومرست موم

ستيفان زفايج

ساكي





الإهداء

«إلى أخي الذي علمني كيف أقرأ وكيف أكتب، وحباني برعايته منذ طفولتي، فكان لي والداً وأخاً وصديقاً...»

«إليه أهدي هذا الكتاب...»

«لعلّي أستطيع أن أفيَ بشيء من الدَّين العظيم»

محمد قطب

تقديم الكتاب

أكان من الحتم أن أقوم أنا الشقيق بتقديم شقيقي؟

وقبل أن أجيب أود أن أسأل: ولِمَ لا؟

تراها تقاليد الناس، ومواضعات المجتمع، والعرف الشائع بين الجماهير؟

ومتى استوحيت تقاليد الناس، ومواضعات المجتمع، والعرف الشائع بين الجماهير!!

إنني أجدر إنسان على هذه الأرض بأن أقدمه في أول عمل مستقل ينشر له... وهذا يكفي!

* * *

في مرحلة مبكرة، ألقت الأقدار على كاهلي، أن أكون أداتها في صنع مستقبل هذا الشاب «محمد قطب».

وحينما وقف على عتبة التعليم العالي ـ بعد شهادة الدراسة الثانوية ـ كان لا يزال فتى صغيراً يناهز السادسة عشرة. وكان عليّ أن أختار له المستقبل. وكنت أجد بين يديّ فتى ماهراً في الإنشاء العربي إلى حد أن يقول ما يعتقد أنه شعر!

كانت المقدمات كلها تشير بأن يسلك طريقه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب. ولكنني ـ وبلا تردد ـ وجدتني أختار له قسم اللغة الإنكليزية!

لِمَ؟ لم أسأل نفسي هذا السؤال. ولكنني حين أرجع اليوم إلى ديواني الأول، الذي أخرجته في ذلك الحين، أجد الجواب.

لقد أهديت إليه باكورة شعري في قصيدة منها هذه الأبيات:

أخـــي. أنـــت نفسي حينما أنـــت صـــورة
لآمــالــي الــقــصــوى الــتــي لــم تــشــارف
تــمــنــيــت مــا أعــيــا الــمــقــاديــر، إنــمــا
وجــدتــك رمـــزاً لـــلأمـــانـــي الـــصـــوادف
فـــأنـــت عـــزائـــي فـــي حـــيـــاة قـــصـــيـــرة
وأنـــت امـــتـــدادي فـــي الـــحـــيـــاة وخالفي

لقد كنت أنا أتخصص في اللغة العربية، فليتخصص هو في اللغة الإنكليزية. ليكون امتدادي في الحياة وخالفي!

وتخرّجت قبله وتخرّج بعدي. وبينما رحت أنا أعكف على قراءة كل ما يترجم أو يقتبس من شتى لغات العالم. كان هو يعكف على «الأشموني» و«الكشاف» و«أساس البلاغة» و«الصناعتين» و«البيان والتبيين» بل... على القاموس!

فلما شبع من مكتبتي العربية القديمة، راح يقرأ الكتاب والشعراء المعاصرين. وعلى شدة إعجابه بالعقاد، كان الحبيب إلى قلبه هو «المازني»!

ماذا؟ أقول المازني؟ أيكون اختياره لهذه الأقاصيص بالذات، وكلها «سخريات» أثراً من آثار المازني الساخر الفكه المداعب؟!.

قد يكون! ولكنه هو في حقيقته «مازني» آخر... هادىء ساكن، مؤدب، وديع... كل هذا من الظاهر. أما في خواطره، وفي حركاته فهناك «العفرتة» تعبث، وتفاكه، وتداعب، وتحلو لها السخرية على وجه العموم!

سخريات صغيرة...

من سخرية «حاجة الإنسان إلى الأرض» حيث يبدو لك أنه الأب الودود يشفق على أبناء الفناء من مطامعهم ومطامحهم وأقصى حاجتهم من الأرض ذراع في ذراع!

إلى سخرية «دستويفسكي» الشيطانية العابثة في أقصوصته «زوجة رجل آخر» حيث يبدو لك أنه يمسك ببطله المسكين و«يلعبه كالأراجوز» في غير شفقة ولا مرثية!، ولكن في غير لؤم ولا موجدة كذلك!

ومن سخرية «سومرست موم» النافذة الجارحة في أقصوصته «الزوجة الثانية عشرة» حيث يبدو لك كأنما يشرّح جثث أبطاله في لذة عميقة، محاولاً أن يكشف عن مواضع النقص في نفوسهم، هازئاً بالهالات التي تحيط بها الإنسانية نفسها، من المثل والمبادئ والفضائل.

إلى سخرية «توماس هاردي» المتشائمة الكامدة في أقصوصته «لإرضاء زوجته»، حيث لا ينكر الفضائل ولا المثل. ولكنه يرى وجه الحياة الكامد الحزين، وتصرفات القدر القاسية المتجهمة مع الحياة والأحياء.

إنه يسخر من الحياة نفسها، حين يسخر سومرست موم من الأحياء.

وإلى جانبهما سخرية «زفايج» ذات الشواظ الحامي والشاعرية الحارة.

السخرية التي تصور القدر جلاداً للنفس الحساسة الشاعرة في «رسالة من امرأة مجهولة».

وأخيراً تجد أقصوصة «الدخلاء» لهكتور هيومنرو الملقب بالساقي (ساكي)... إنها تذكرني بأقصوصة تولستوي «حاجة الإنسان من الأرض»... ولكن لا... إن في «تولستوي» رحمة النبيين. أما «ساكي» فحين يسخر بمطامح الإنسان ومطامعه ويتركك في ذهول السخرية، وعلى فمه ابتسامة باهتة ليس فيها شيء من الحنان!

* * *

وبعد أفلم يكن من الحتم أنا الشقيق أن أقوم بتقديم شقيقي!

إنه أول عمل مستقل ينشر له، وهو ترجمة عن اللغة الإنكليزية ـ وإن يكن له ما يؤلفه تأليفاً ـ -أقول: اللغة الإنكليزية. ألم تكن هذه هي رغبتي المضمرة التي لم أتنبه لها وأنا أدفع به في هذا الطريق؟!

سيد قطب

حاجة الإنسان من الأرض

لتولستوي

(1)

ذهبت الأخت الكبرى لزيارة أختها الصغيرة في الريف، وكانت الكبرى زوجة لأحد التجار في المدينة، بينما تزوجت الصغرى فلاحاً في القرية. ودار الحديث بينهما: فراحت الكبرى تفخر بمزايا الحياة في المدينة وتتحدث عن الراحة التي تنعم بها هناك، وعن الملابس الأنيقة التي تلبسها هي وزوجها وأولادها، وعن طيب المأكل والمشرب، وكيف أنها تذهب إلى المسرح وتخرج إلى الرياضة وتحضر حفلات التعارف...

واستاءت الصغرى لهذا الحديث، فراحت بدورها تحطُّ من قدر حياة التجار وترفع من شأن الفلاحين وقالت:

- إنني لا أقبل أن أبدل بحياتي حياتك. وقد تكون حياتنا خشنة، ولكننا نشعر على الأقل بالتحرر من القلق. إنكم تعيشون على نمط خير منا. ولكنكم كثيراً ما تكتسبون أكثر من حاجتكم، ثم تتعرضون لفقد كل ما تمتلكون وإنك تعرفين المثل القائل:

«الخسارة والمكسب أخوان» وكثيراً ما نرى أغنياء اليوم يمدون أيديهم

للسؤال غداً. أما طريقتنا نحن فطويلة. ولن نصبح ذات يوم أغنياء. ولكنا سنجد دائماً كفايتنا من الطعام. فقالت الكبرى ساخرة:

ـ كفايتكم؟ نعم! إذا أردتم أن تشاركوا الخنازير والعجول في طعامها. ما الذي تعرفون عن اللياقة والرقة وآداب المعاملة...؟ مهما ظل رجلك يعمل كالعبيد فستموتين كما تحيين على كومة من السماد. وأولاده كذلك يلاقون المصير نفسه.

فقالت الصغرى:

ـ وماذا في هذا؟ لا شك أن عملنا خشن غليظ، ولكنه مضمون ولا نحتاج أن نحني رؤوسنا لأحد. أما أنتم في مدنكم فالمغريات حولكم من كل صوب. وقد يكون الأمر اليوم على ما يرام، أما في الغد فقد يغوي الشيطان زوجك بالقمار أو الخمر أو النساء فيصبح كل شيء حطاماً. أوَليست تلك الأشياء كثيرة الحدوث؟

كان باخوم ـ سيد البيت ـ مستلقياً في هذه الأثناء فوق الفرن يستمع لثرثرة المرأتين وقال لنفسه: «إن هذا هو الحق المبين. فمنذ طفولتنا ونحن ـ الفلاحين ـ نعمل في فلاحة أمّنا الأرض، فلا نجد وقتاً نحشو فيه رؤوسنا بالأفكار الفارغة.

ومشكلتنا الوحيدة، أننا لا نجد كفايتنا من الأرض، لو كان عندي أرض واسعة ما تهيبت لقاء الشيطان نفسه!».

وانتهت المرأتان من تناول الشاي، وتحدثتا بعض الوقت عن الملابس، ثم نظفتا المائدة من أدوات الشاي واستلقتا استعداداً للنوم.

ولكن الشيطان كان جالساً وراء الفرن وسمع الحديث كله، وسرّه أن

زوجة الفلاح قد أدّت بزوجها إلى المفاخرة، وأنه قال إنه لو كان يملك أرضاً واسعة ما تهيب لقاء الشيطان نفسه. وقال الشيطان في نفسه: «هذا حسن. فلنتصاول معاً، سأعطيك كفايتك من الأرض، وبهذه الأرض ذاتها أملك الأمر عليك».

(2)

بالقرب من القرية كانت تقطن سيدة من صغار الملاك تملك ضيعة تقرب من ثلاثمئة فدان، وقد ظلت علاقاتها بالفلاحين طيبة حتى اتخذت أحد الجنود القدماء وكيلاً لها فأرهق الناس بالغرامات، ومهما اشتد حرص باخوم فإن الأمر لم يكن يخلو من أن يدخل حصانه حقل الشوفان أو تهبط بقرته إلى الحديقة. وكان عليه دائماً أن يدفع الغرامة.

كان يدفع ولكنه كان يعود إلى منزله ساخطاً غاضباً فيخاشن أهله، وقد ظل الصيف الأخير كله في اضطراب بسبب ذلك الوكيل... وتنفس الصعداء حين حل الشتاء وبقيت الماشية في حظائرها لا تبارحها، ومع أن ثمن العلف كان يؤوده حين كان يمتنع على الماشية الرعي في البراري إلا أنه كان يستريح من القلق بشأنها. وسرت الأنباء في الشتاء بأن السيدة تنوي أن تبيع أرضها، وأن صاحب الفندق يساومها في أمرها، فلما سمع الفلاحون ذلك اشتد فزعهم وقالوا:

ـ لئن وقعت الأرض في يد هذا الرجل فلسوف يرهقنا أكثر مما يفعل الوكيل، ونحن جميعاً نعتمد على هذه الضيعة.

وحزموا أمرهم على أن يطلبوا من السيدة باسم المجلس القروي ألا

تبيع أرضها لصاحب الفندق، وعرضوا عليها ثمناً أكبر مما عرض فوافقت، وبقي أن يقنعوا المجلس بشرائها على أن يساهموا فيها بحيث تصبح ملكهم جميعاً، واجتمعوا لذلك مرتين ولكنهم لم ينتهوا إلى قرار، إذ نزغ الشيطان بينهم فلم تجتمع كلمتهم، فقرروا أن يشتروا الأرض آحاداً، كل على قدر استطاعته، ووافقت السيدة على هذا العرض، كما وافقت على العرض الآخر من قبل.

وسمع باخوم أن أحد جيرانه شرع في شراء خمسين فداناً وأن السيدة رضيت أن تقبض نصف الثمن في الحال، على أن تؤجل النصف الثاني إلى العام المقبل، فأحس بالغيرة وقال لنفسه: «افتح عينيك وانظر! إن الأرض ستباع كلها دون أن يكون لك منها نصيب». ثم راح يحدث زوجته: «الناس غيرنا يشترون ويجب أن نشتري نحن عشرين فداناً أو نحو ذلك، إن الحياة أصبحت مستحيلة، وهذا الوكيل سيحطم حياتنا بغراماته».

وفكرا معاً في طريقة تمكنهما من شراء الأرض، وكانا يدخران مئة روبل، فباعا مهراً كان لديهما، وباعا نصف ما لديهما من خلايا النحل، وأجّرا أحد أبنائهما ليشتغل عاملاً. وأخذا أجره مقدماً، واستلفا ما تبقى من أحد أصهارهما. وهكذا حصلا على نصف ثمن الشراء.

فلما انتهى باخوم من تدبير المال، اختار مزرعة تبلغ أربعين فداناً في جزء منها غابة، وذهب إلى صاحبة الأرض يساومها فيها، ثم اتفقا ووضع يده في يدها علامة الرضا. ودفع لها عربوناً، ثم توجّها إلى المدينة فسجّلا البيع ودفع لها نصف الثمن واعداً إياها أن يسدد الباقي في خلال عامين.

وكذلك صارت لباخوم أرض يملكها، واستلف حبوباً فزرعها في

الأرض التي اشتراها، وكان المحصول طيباً فاستطاع خلال سنة واحدة أن يسدد ديونه لصاحبة الأرض ولصهره على السواء، وأصبح من الملاك يحرث ويزرع أرضه الخاصة، ويدرس فيها غلاله ويقطع الأخشاب من أشجاره ويرعى الماشية في مراعيه، وكان إذا خرج ليحرث حقله أو ليمتع نظره بالقمح النامي في الأرض أو الأعشاب المخضرة، يمتلىء قلبه بفرحة لذيذة، ويخيل إليه أن الأعشاب النامية والأزاهير المتفتحة هناك فذة لا يشبهها شيء مما ينمو في أماكن أخرى. وقد كان يمر من قبل فيراها كأية أرض أخرى، أما اليوم فلها شأن آخر...!

(3)

رضيت نفس باخوم...

ولقد كان كل شيء يسير على ما يرام لو لم يعمد جيرانه الفلاحون إلى اختراق حقول القمح والبرسيم التي يملكها. ولقد رجاهم بكل رقة ألا يفعلوا. ولكنهم استمروا فيما هم فيه. فأحياناً يترك الرعاة مواشيهم تهيم في مزارعه، أو تنزل الخيل في الليل إلى قمحه فتأكله، وطالما أخرجها باخوم بنفسه وسامح أصحابها، وامتنع مدة طويلة من أن يقاضي أحداً منهم. ولكن صبره نفد آخر الأمر ورفع الأمر إلى القضاء. وكان يعلم أن الحاجة، لا سوء النية هي التي دفعت الفلاحين إلى هذا الأمر. ولكنه قال في نفسه:

- لا أستطيع أن أستمر في التغاضي عن أعمالهم، وإلا أفسدوا كل ما أملك. لا بد أن ألقنهم درساً.

ثم لقنهم درساً بعد درس. ووقعت الغرامات على اثنين أو ثلاثة من

الفلاحين، فما لبث جيران باخوم أن أبغضوه لصنيعه معهم. وصاروا بين الحين والحين يدفعون مواشيهم إلى أرضه عمداً، بل وصل الأمر إلى حد أن أحد الفلاحين دخل غابة باخوم في الليل وقطع خمساً من أشجار الليمون الصغيرة من أجل لحائها. وبينما كان باخوم يتفقد الغابة ذات يوم لاحظ شيئاً أبيض عن بعد فلما اقترب وجد الجذوع المشقورة ملقاة على الأرض على مقربة من أصولها، فغضب واحتدّ وقال في نفسه: «لو أنه قطع شجرة هنا وشجرة هناك لكان الأمر من السوء بمكان، ولكن الوغد قد قطع مجموعة بأكملها. لو أنني عرفت من فعلها... لعرفت كيف أجازيه».

وأرهق نفسه وهو يبحث في فكره عن الفاعل. وأخيراً قال: «لا بد أنه سيمون. فلا أحد سواه يصنع ذلك». وذهب إلى منزل سيمون يرقب ما حوله فلم يجد شيئاً وقوبل مقابلة غاضبة، ولكنه ازداد اقتناعاً بأن سيمون هو الذي فعل تلك الفعلة وشكاه إلى القضاء.

فلما نظرت القضية ولم يجدوا دليلاً يدينون به سيمون أطلقوا سراحه. فزاد ذلك من حزازات باخوم وصبّ جام غضبه على القضاة، وصرخ في وجوههم:

- إنكم تأخذون الرشا من اللصوص. لو كنتم أمناء لما تركتم لصّاً واحداً مطلق السراح.

وهكذا تخاصم باخوم مع القضاة ومع الجيران. وبدأت تصدر إليه تهديدات بإحراق منزله ومبانيه. وأصبح مركزه في القرية سيئاً على الرغم من أن أرضه قد زادت اتساعاً.

وفي ذلك الوقت سرت إشاعة بأن كثيراً من الناس ينزحون إلى أماكن

جديدة. وفكّر باخوم وقدّر: «لا حاجة بي أن أترك أرضي، ولكن قوماً آخرين سيتركون القرية فينفسح المجال أمامي وآخذ أرضهم لنفسي وأوسع ضيعتي قليلاً وأستريح أكثر. إذ إن أرضي اليوم أضيق من أن أمدّ فيها طرفي».

وكان باخوم جالساً في منزله ذات ليلة حين طرق الباب مصادفة أحد الفلاحين وطلب إيواءه تلك الليلة فأذن له وقدم له العشاء. وراح باخوم يتجاذب معه أطراف الحديث فسأله عن المكان الذي قدم منه، فأجابه الغريب بأنه قدم من وراء الفلجا حيث كان يشتغل. وتشعب بهما الحديث حتى قال الرجل إن كثيراً من الناس قد استوطنوا ذلك المكان، وإن بعض أبناء قريته قد ذهبوا ليعيشوا هناك حيث مُنح كل منهم خمسة وعشرين فداناً. وإن الأرض هناك شديدة الخصب، حتى إن الشعير الذي ينبت فيها يصل ارتفاعه إلى مثل قامة الحصان، ويكون من الغزارة بحيث إن خمس ضربات من المنجل تكوّن حزمة كاملة. وقال: إن أحد الفلاحين ذهب إلى هناك ولم يُحضر معه شيئاً إلا يديه فارغتين، فأصبح يمتلك الآن ستة من الخيل وبقرتين. فاشتعلت الرغبة في قلب باخوم وفكر:

ـ ما الذي يحملني على العذاب في تلك الأرض الضيقة إذا كان الإنسان يستطيع أن يحيا حياة راضية في مكان آخر؟ سأبيع أرضي ومنزلي هنا، وبالمال المتحصل أبدأ حياة جديدة هناك. ففي هذا المكان الضيق لا يكاد الإنسان يخلص من المشاكل. ولكن ينبغي أن أذهب إلى هناك أولاً لأرى كل شيء بنفسي.

فلما اقترب الصيف تجهز للسفر، وركب باخرة عبرت به الفلجا إلى سمارا. ثم سار قرابة ثلاثمئة ميل على قدميه، وأخيراً بلغ غايته، ووجد

كل شيء كما أخبره ذلك الغريب: كان لدى الفلاحين سعة من الأرض، وكل فلاح قد أُعطي خمسة وعشرين فداناً من أرض المجلس لاستعماله الخاص، ويستطيع من شاء ممن يملكون المال أن يشتري ما يريد شراءه من الأرض بسعر عشرة قروش للفدان.

فلما عرف باخوم كل ما أراد الوقوف عليه من معلومات قفل راجعاً إلى بلده، وكان ذلك في مبدأ الخريف، وراح يبيع ممتلكاته. فباع الأرض وربح فيها. وباع المنزل والماشية وانسحب من عضوية مجلس القرية. ثم انتظر مقدم الربيع حيث رحل وأهله إلى الموطن الجديد.

(4)

وما إن وصل باخوم وأسرته إلى المكان الجديد حتى طلب السماح له بالانضمام إلى سكان إحدى القرى الكبيرة، وقدّم المستندات اللازمة لذلك، ومُنح خمسة أسهم في الأرض له ولأبنائه، أي مئة وخمسة وعشرين فداناً (ولم تكن كلها في مكان واحد بل كانت قطعاً متفرقة) هذا إلى جانب حقه في الانتفاع بالمراعي العامة.

وبنى باخوم المباني اللازمة للعمل والسكنى واشترى بعض الماشية...

لقد كان له من الأرض المشاعة وحدها ثلاثة أضعاف ما كان له في موطنه السابق، فضلاً على أن الأرض خصبة تصلح لزراعة القمح. إنه اليوم أفضل مما كان عشرة أضعاف، فلديه فسحة في الأرض الصالحة للزراعة وفسحة في المراعي، ويستطيع أن يربي من الماشية بقدر ما يريد.

وأحس باخوم في أول الأمر، وفي نشوة البناء والتعمير، أحس بالسرور

بكل شيء. ولكنه بعد أن اعتادت نفسه المحيط الجديد أخذ يحس أنه لم يحصل بعد على كل حاجته من الأرض.

وقد زرع في العام الأول نصيبه من الأرض المشاعة قمحاً، وكان المحصول وافراً، فأراد أن يستزيد من زراعة القمح، ولكن نصيبه من الأرض لم يكن يفي بالغرض المنشود. ثم إن الجزء الذي استعمله منها لم يعد صالحاً لزراعة القمح. ذلك أن القمح لم يكن يزرع في تلك الأرجاء إلا في الأراضي البكر أو البور، فيزرع سنة أو سنتين على الأكثر ثم تترك الأرض بوراً حتى تغطيها الحشائش البرية، والناس يتزاحمون على مثل تلك الأرض ويتعاركون عليها لقلتها. فأما الميسورون فيرغبون فيها ليزرعوها قمحاً. وأما الفقراء فيرغبون في تأجيرها للحصول على مال يدفعونه ضرائب. ولما كان باخوم يرغب في زيادة ما يزرعه من القمح فقد استأجر بعض الأرض لمدة عام وزرع قمحاً كثيراً وجمع محصولاً وفيراً. ولكن الأرض كانت بعيدة عن القرية، وكان عليه أن ينقل القمح في العربات مسافة تزيد على عشرة أميال.

ولاحظ باخوم بعد مدة أن بعض الفلاحين يعيشون في مزارع مستقلة، وأنهم سرعان ما يثرون، فقال لنفسه: «لو أنني اشتريت أرضاً حرة وبنيت لي فيها منزلاً، لكان لي شأن آخر، ولكان كل شيء حسناً وموافقاً».

وظلت فكرة شراء الأرض الحرة تخايل له مرة بعد أخرى، ولكنه بقي على حاله ثلاث سنوات يستأجر الأرض ويزرع القمح، وساعدته الظروف فجمع محاصيل طيبة استطاع بها أن يدّخر مالاً وفيراً. وكان من الممكن أن يظل في حياته تلك راضياً. ولكنه سئم استئجار أرض غيره كل عام، وبذل الجهد العنيف في الحصول عليها، إذ إن الناس كانوا يتسابقون

متى وجدوا الأرض الصالحة، ويتزاحمون حتى ليصعب على الإنسان أن يحصّل شيئاً.

وحدث في السنة الثالثة أن استأجر هو وأحد الزملاء قطعة من أرض المراعي من بعض الفلاحين، وبعد حرثها حدث نزاع بشأنها، وشكا الفلاحون إلى القضاء، وضاعت الأرض بعد كل ما بذل فيها من جهود. فقال باخوم لنفسه:

لو أنها كانت أرضي خاصة لشعرت بالاستقلال، ولما كانت كل تلك المنغصات.

وبدأ يبحث عن أرض يشتريها. ولقي واحداً من الفلاحين كان قد اشترى ألفاً وثلاثمئة فدان، ولكنه وقع في ضيق فاضطر إلى بيعها بثمن أرخص مما اشتراها به، فساومه باخوم وأعنته حتى تراضيا على ألف وخمسمئة روبل بعضها نقداً وباقيها يدفع فيما بعد.

وكاد باخوم يتم الصفقة حين مرّ بداره أحد التجار ذات يوم ليشتري علفاً لخيله، وتناول معه الشاي وأخذا يتحادثان فقال الرجل: إنه قد عاد لتوّه من أراضي «البشكير» البعيدة حيث اشترى ثلاثة عشر ألفاً من الفدادين بألف روبل لا غير.

فلما استوضحه باخوم الأمر قال: «كل ما يحتاج إليه الإنسان هو أن يصادق رؤساءهم. لقد أهديت إليهم ما قيمته مئة روبل من الملابس الحريرية والسجاجيد، فضلاً على صندوق من الشاي، وأهديت بعض الخمور لمن يشربها منهم، وأخذت الأرض بما يقل عن نصف قرش للفدان». ثم عرض على باخوم وثائق الصفقة قائلاً: «إن الأرض تقع على

مقربة من النهر وهي كلها أرض عذراء». فأمطره باخوم وابلاً من الأسئلة ردّ عليها التاجر بقوله:

ـ هناك من الأرض ما لا تستطيع أن تقطعه لو سرت عاماً كاملاً. وكلها مملوكة لقبائل البشكير. وهم قوم على الفطرة بسطاء كالأغنام. ويمكن الحصول على الأرض بدون مقابل تقريباً.

وفكّر باخوم مليّاً: «لماذا أشتري بالألف روبل التي أملكها ألفاً وثلاثمئة فدان، وأقيّد نفسي بالدين علاوة على ذلك؟ إذا ذهبت إلى هناك فسأحصل على ما يزيد على عشرة أضعاف هذا القدر بتلك النقود».

(5)

سأل باخوم عن طريق الوصول إلى ذلك المكان، وما إن تركه التاجر حتى تجهز للذهاب بنفسه إلى هناك، وترك زوجته لتشرف على المنزل، ورحل مستصحباً خادمه. ووقفا في الطريق عند إحدى المدن حيث ابتاعا صندوقاً من الشاي وبعض الخمور والهدايا الأخرى كما نصحه التاجر. وظلّا في رحلتهما تلك حتى قطعا أكثر من ثلاثمئة ميل، وفي اليوم السابع وصلا إلى مكان قد ضربت فيه خيام قبائل البشكير. كل شيء كما وصفه التاجر. وكان القوم يعيشون في إقليم (الاستبس) بالقرب من النهر في خيام مغطاة باللباد، ولم يكونوا يزرعون الأرض ولا يأكلون الخبز، بل يرعون مواشيهم وخيولهم في حشائش الاستبس، ويحلبون ألبانها ويصنعون من اللبن شراباً مخمراً تعده نساؤهم، كما يصنعون منه الجبن أيضاً، وكل ما يشغل الرجال هو شرب اللبن المخمر والشاي وأكل لحم

الضأن والعزف على مزاميرهم. وكانوا جميعاً على شيء كبير من البدانة، شديدي المرح. ولم يكونوا يفكرون في القيام بأي عمل طوال الصيف. وكانوا أميين لا يعرفون شيئاً من الروسية، ولكنهم كانوا على شيء كثير من صفاء السريرة.

وما إن رأوا باخوم حتى خرجوا من خيامهم وتجمعوا حول زائرهم واستدعوا ترجماناً، فأخبرهم باخوم أنه يريد شيئاً من الأرض، فظهر السرور على رجال البشكير، وأخذوا باخوم إلى واحدة من أكبر خيامهم حيث أجلسوه على حشية (شلتة) موضوعة على بساط، وجلسوا من حوله، وقدموا له شيئاً من الشاي واللبن المخمر ولحم الضأن. ثم أخرج باخوم بعض الهدايا من العربة التي كان يحملها فيها ووزعها عليهم وقسم الشاي بينهم، فسروا بذلك سروراً عظيماً وراحوا يتحادثون فيما بينهم فترة طويلة، ثم طلبوا من الترجمان أن ينقل إليه حديثهم فقال:

ـ إنهم يودون أن يعربوا لك عن حبهم إياك. وإن من عادتنا أن نعمل ما في وسعنا لإدخال السرور إلى نفوس ضيوفنا وأن نمنحه كفاء هداياه. وقد وزعت علينا هدايا كثيرة فأخبرنا عما يروقك فيما نملكه فنهديك إياه.

فأجاب باخوم: «خير ما يروقني هنا هو أرضكم. فأراضينا مزدحمة وتربتها منهوكة. أما أنتم فأراضيكم واسعة خصبة، ما رأيت مثلها قط من قبل».

ونقل الترجمان كلامه إليهم فعادوا يتحادثون فترة فيما بينهم، ولم يستطع باخوم أن يفهم كلامهم، ولكنه رأى أنهم كانوا مسرورين حتى إنهم كانوا يرفعون أصواتهم ويتضاحكون. ثم سكتوا وتوجهوا إلى باخوم بينما أخذ المترجم يقول:

ـ يريدونني أن أخبرك أنه يسرّهم أن يمنحوك ـ في مقابل هداياك ـ ما تشاء من الأرض، وما عليك إلا أن تشير بيدك فتصبح الأرض ملك يمينك.

وعاد الرجال يتحدثون ثم يتناقشون. فسأل باخوم عن موضوع نزاعهم فأخبره المترجم أن بعضهم يرى أنه ينبغي أن يطلعوا رئيسهم على الأمر، وألا يتصرفوا في غيبته، بينما يرى آخرون أنه لا يوجد ما يدعو للانتظار.

(6)

وبينما الرجال يتناقشون أقبل رجل يرتدي فراء ثعلب ضخم فسكت الجميع ونهضوا واقفين وقال الترجمان: «هذا رئيسنا قد حضر بنفسه».

فأسرع باخوم إلى هداياه فأخرج من بينها رداء فاخراً وخمسة أرطال من الشاي وأهداها إلى الرئيس الذي تقبلها منه قبولاً حسناً، ثم جلس في مكان الشرف من الجمع، وما لبث رجال القبيلة أن نقلوا إليه بعض الحديث، فاستمع إليهم فترة، ثم أشار إليهم برأسه أن اصمتوا وتوجّه بالحديث إلى باخوم قائلاً له بالروسية:

ـ لك ما تشاء وعليك أن تختار الأرض وما يناسبك فالأرض لدينا رحيبة.

ففكّر باخوم في نفسه: «كيف آخذ من الأرض بقدر ما أريد؟ لا بدّ من تسجيل الصفقة حتى تكون مضمونة وإلا فهم يقولون الآن: هي لك، وقد يعودون فيستردّونها بعد ذلك».

ثم قال بصوت مسموع: «أشكركم على كلماتكم الطيبة، وإن لديكم لأرضاً واسعة حقاً، وما أحتاج إلا إلى قليل. ولكني أحب أن أتأكد من

القطعة التي أمتلكها، فهل يمكن قياسها وتخصيصها لي؟ الموت والحياة في يد لله، وقد تمنحونني أنتم بكرمكم قطعة من الأرض، ثم يجيء أولادكم فيرغبون في استردادها مني».

فقال الرئيس: «إنك على صواب، سنعمل بما أشرت به». فاستطرد باخوم قائلاً: «لقد سمعت أن تاجراً قد حضر إليكم فأعطيتموه قطعة من الأرض وكتبتم له عقداً، وأحب أن تعاملوني على الأساس ذاته».

وفهم الرئيس قصده ثم أجاب:

ـ نعم ذلك ميسور، ولدينا كاتب، وسنذهب إلى المدينة فنسجل لك العقد.

فسأل باخوم: «وكم سيكون الثمن؟»

فقال الرئيس: «إن الثمن لدينا واحد لا يتغير، اليوم بألف روبل».

فلم يفهم باخوم وقال: «اليوم؟ أيّ مقياس ذلك؟ كم يساوي من الفدادين؟».

فقال الرئيس: «إننا لا نعرف للأرض مقياساً فنبيعها باليوم، فكل ما تستطيع أن تحيط به سائراً على قدميك في اليوم فهو ملكك، والثمن ألف روبل في اليوم».

فعجب باخوم لذلك وقال: «ولكن الإنسان يستطيع أن يحيط بقطعة كبيرة من الأرض في اليوم».

فضحك الرئيس وقال: «سيكون كله لك، ولكن هناك شرطاً، فإذا لم تعد في اليوم نفسه إلى المكان الذي بدأت منه ضاع عليك كل مالك».

ـ ولكن كيف أميّز الطريق التي سرت منها؟

ـ سنذهب إلى أيّ مكان تشاء ونبقى هناك، وعليك أن تبدأ من ذلك المكان وتدور دورتك حاملاً معك معولاً، وحيثما رأيت أن تضع علامة فافعل، وعند كل دورة تحفر حفرة وتكوم عندها كومة من الحشائش، وبعد ذلك نأخذ المحراث فنخطّ به الأرض من حفرة لحفرة، ولك أن توسع الدائرة كما تشاء، ولكن عليك أن تعود قبل غروب الشمس إلى المكان الذي بدأت منه، وكل ما درت حوله من الأرض فهو ملك لك.

ففرح بذلك باخوم. وتقرر أن يبدأ العمل في وقت مبكر من صبيحة الغد، وتحادث القوم بعض الوقت. وبعد أن شربوا شيئاً من اللبن المخمر وأكلوا بعض لحوم الضأن عادوا يشربون الشاي. وكان الليل قد أقبل فأعدوا لباخوم فراشاً من الريش ينام عليه. وتفرق رجال القبيلة وقد وعدوا أن يجتمعوا عند الفجر ليركبوا إلى المكان المحدد.

(7)

استلقى باخوم على فراش من الريش، ولكنه لم يستطع أن ينام، بل بقي يفكر في الأرض ويقول في نفسه: «ما أوسع الأرض التي سأختطتها! أستطيع بسهولة أن أقطع خمسة وثلاثين ميلاً في اليوم. والنهار طويل في هذه الأيام. وما أوسع الأرض التي تكون في داخل دائرة محيطها خمسة وثلاثون ميلاً! سأبيع الأرض الضعيفة أو أؤجرها للفلاحين، ثم أستبقي الأرض الجيدة وأزرعها، وأشتري زوجين من الثيران، وأستأجر اثنين آخرين من العمال. وأحرث قرابة مئة وخمسين فداناً وأترك الباقي لرعي الماشية».

وظل باخوم ساهراً الليل بطوله. وأخذته سِنة قبيل الفجر، فما كاد يغمض عينيه حتى رأى حلماً. رأى كأنما كان نائماً في تلك الخيمة ذاتها حين سمع قهقهة في الخارج. ولم يستطع أن يدرك من ذا الذي يقهقه فقام وذهب إليه فرأى رئيس القبيلة جالساً أمام الخيمة ممسكاً جنبيه من شدة الضحك. فاقترب منه باخوم وسأله: «ما الذي يضحكك هكذا؟»

ولكنه وجد أن الشخص الذي أمامه لم يعد رئيس القبيلة بل التاجر الذي زاره قريباً وحدثه عن الأرض. وما كاد باخوم يهمّ أن يسأله: «هل أنت هنا منذ وقت كثير؟» حتى وجد أنه لم يعد التاجر، بل الفلاح الذي أتى من الفلجا منذ زمان بعيد إلى منزل باخوم القديم. ثم رأى أنه لم يعد ذلك الفلاح، بل الشيطان نفسه بحوافره وقرونه جالساً يقهقه، وأمامه رجل حافي القدمين ممدداً على الأرض، وليس عليه إلا سراويله وقميصه. ورأى باخوم في حلمه أنه حملق في الرجل ليرى أيّ شخص هو، فرآه ميتاً، ورأى أنه هو نفسه! فاستيقظ مذعوراً وقال في نفسه:

ـ ألا ما أبشع ما يرى الإنسان في الأحلام!

ونظر فرأى من خلال الباب المفتوح أن الفجر قد قارب، فقال لنفسه:

ـ لقد آنَ وقت استيقاظهم. كان ينبغي أن نشرع الآن في العمل.

ونهض وأيقظ خادمه (الذي كان ينام في العربة) وأمره أن يعدّ العربة ثم ذهب ينادي رجال القبيلة وهو يقول: «هذا أوان الذهاب إلى البراري لقياس الأرض».

نهض الرجال واجتمعوا وحضر رئيسهم كذلك، وشربوا اللبن المخمر وقدموا لباخوم شيئاً من الشاي، ولكنه لم يشأ أن ينتظر، وقال: «ما دمنا قد عزمنا فلنذهب. لقد تأخر الوقت».

(8)

استعد رجال البشكير وبدؤوا رحلتهم، بعضهم يركب الخيل وبعضهم يستقل العربات. وركب باخوم في عربته الصغيرة مع خادمه وأخذ معه المعول، فلما وصلوا إلى البراري كان الصباح قد بدأ ينشر أضواءه الحمراء. فصعدوا فوق ربوة وترجلوا عن خيولهم وتجمعوا في مكان واحد. وتوجّه الرئيس إلى باخوم ومدّ ذراعه نحو السهل وهو يقول:

ـ انظر! كل تلك الأرض إلى آخر ما تستطيع عيناك أن ترى هو ملك لنا، وتستطيع أن تأخذ منها أيّ قطعة تشاء.

فلمعت عينا باخوم إذ رأى الأرض كلها بكراً منبسطة كراحة اليد، سوداء كحبة الخشخاش، تنبتت فيها حشائش مختلفة الأنواع تصل إلى قامة الرجل طولاً. ورفع الرئيس قبعته المصنوعة من فراء الثعلب ووضعها على الأرض ثم قال:

ـ هذه علامتنا. تبدأ من هنا ثم تعود إلى هنا مرة أخرى. وكل ما أحطت به من الأرض فهو لك.

فأخرج باخوم نقوده ووضعها على القبعة، ثم نزع سترته وبقي بصدريته وفك حزام سراويله ثم ربطه ربطاً وثيقاً تحت معدته، ووضع في صدريته كيساً صغيراً مملوءاً بالخبز، وربط في حزامه قارورة ماء، وأخذ المعول من خادمه ووقف مستعداً للابتداء. وراح يفكر بضع لحظات في أيّ طريق يسلك، فقد كان كل مكان يغريه، ثم ختم تردده بقوله:

ـ لا يهم! سأتجه نحو الشمس المشرقة.

وولّى وجهه شطر الشرق وتمطّى، وانتظر حتى تبزغ الشمس على خط الأفق، وفكّر في نفسه:

ـ لا ينبغي أن أضيع وقتاً والمشي أسهل في برودة الصباح.

وما كادت أشعة الشمس الأولى تلمع وراء الأفق حتى كان باخوم قد هبط إلى البراري يحمل معوله فوق كتفه.

وبدأ باخوم سيره لا مبطئاً ولا مسرعاً. وبعد أن سار نحو ألف متر توقف عن المسير وحفر حفرة وكوّم بعض الحشائش عندها لتظهر بسهولة. ثم مضى في سبيله وقد أسرعت خطاه قليلاً بعد إذ نشط جسمه للسير. وحفر بعد مدة حفرة أخرى. ونظر وراءه فرأى الربوة ظاهرة في لمعة الشمس والناس فوقها وعجلات عربته تلمع في النور، وقدر باخوم بالحدس أنه قد سار ثلاثة أميال، وكان الجو قد أخذ في الدفء فخلع صدريته وعلقها على كتفه واستمر في سيره. وأحس بزيادة في الدفء فنظر إلى الشمس. لقد آن أوان الإفطار.

قال لنفسه: «لقد تمت المرحلة الأولى، ولكن هناك أربع مراحل في اليوم، ولم يئن بعد أن أتحوّل إلى وجهةٍ جديدة. ولكن لا بأس من خلع الحذاء».

وجلس وخلع نعليه وعلقها في حزامه ثم عاد للسير وقد سهل الآن عليه. قال:

سأسير ثلاثة أميال أخرى ثم أنحرف إلى الشمال. هذا المكان جميل وفقده خسارة. وكلما أمعن الإنسان في السير بدت الأرض أجمل في عينيه.

ومضى في طريقه برهة أخرى حتى إذا التفت وراءه لم يكد يتبين الربوة إلا وهماً، وبدا الناس فوقها كالنمل الأسود، واستطاع أن يميّز شيئاً صغيراً يلمع في أشعة الشمس.

وفكّر باخوم: «لقد سرت هذا الاتجاه بالقدر الكافي، وآن أن أتحول إلى اليسار، ثم إن العرق يقطر مني وأنا ظمآن» فتوقف، وحفر حفرة كبيرة وكوّم عندها أكواماً من الحشائش، ثم فك قارورة الماء وتجرع منها جرعة، ثم استدار إلى الشمال وظل يسير. وكان العشب مرتفعاً والجو شديد الحرارة.

وبدأ باخوم يحس بالتعب، ونظر إلى الشمس فرأى أنه الظهر، فقال: «يجب أن أستريح». وجلس على الأرض، وتناول شيئاً من الخبز وشرب جرعة من الماء، ولكنه لم يستلق على الأرض توقعاً منه أن ينام لو فعل، وبعد أن جلس برهة عاد إلى السير، وكان سيره سهلاً أول الأمر، فقد أعاد الطعام إليه قوته. ولكن الجو كان قد سخن إلى حدّ مرهق، وأحس بالنعاس يثقل جفنيه، ولكنه مضى في سيره وهو يقول لنفسه: «ساعة تعب تعقبها راحة العمر كله».

وسار في تلك الوجهة مسافة طويلة وهمّ أن يتحول إلى يساره مرة أخرى ولكنه رأى أرضاً رطبة على مقربة منه فقال لنفسه:

ـ من الخسارة أن أترك تلك البقعة، فإن الكتان ينمو فيها جيداً.

وراح يطوف بتلك الأرض وحفر حفرة عند نهايتها قبل أن يولي شطر اليسار. ونظر نحو الربوة. وكانت الحرارة قد جعلت الجو مكفهراً فرأى كأن الربوة تهتز، واستطاع بصعوبة أن يميّز الواقفين هناك. ففكّر في نفسه:

ـ لقد أطلت هذين الجانبين جداً، فينبغي أن أجعل هذا الجانب قصيراً.

ومضى في الجانب الثالث، وقد وسع خطواته، ثم نظر إلى الشمس فرآها في منتصف الطريق نحو الأفق، ولم يكن بعد قد قطع ميلين من الضلع الثالث في المربع، وما زالت أمامه عشرة أميال قبل أن يتحول إلى الضلع الرابع فقال لنفسه:

ـ لا! يجب أن أتجه منذ الآن إلى الربوة في خط مستقيم ولو أن هذا يجعل أرضي غير منتظمة الأطراف، إذ ربما أبعدت في السير من هنا فيفوتني الوقت. ثم إن لديّ الآن مقداراً كبيراً من الأرض.

وأسرع بحفر حفرة، وولّى وجهه نحو الربوة.

(9)

مضى باخوم نحو الربوة مباشرة، ولكنه كان الآن يسير بصعوبة فقد أنهكه الحر وتسلخت قدماه العاريتان، وبدأت ساقاه تتثاقلان، وأحس برغبة عنيفة في أن يستريح. ولكن هذا كان مستحيلاً عليه إذ كان يريد أن يصل قبل الغروب. فالشمس لا تنتظر أحداً، وقد كانت تهبط بسرعة نحو الأفق.

وقال باخوم لنفسه: «آه لو أنني لم أوغل هنا وهناك طمعاً في كثرة الأرض! ماذا يكون لو تأخرت؟».

وتطلع نحو الربوة ونحو الشمس... كان ما زال بعيداً عن هدفه والشمس قد قاربت خط الأفق.

وسار باخوم وطال سيره. وكان السير عسيراً عليه الآن، ولكنه أسرع

وأسرع وهو يضغط على نفسه ويزداد ضغطاً... ولكنه كان ما يزال بعيداً عن المكان، فراح يعدو عدواً، وألقى صدريته ونعليه وقارورته وقبعته ولم يستبقِ إلا المعول الذي كان يتوكأ عليه.

وعاد يفكر: «ماذا أصنع؟ لقد وضعت يدي على كثير ثم حطمت كل شيء. لن أستطيع أن أبلغ المكان قبل غروب الشمس».

وقطع هذا الخوف أنفاسه. ولكنه ظل يعدو وقد التصق به قميصه وسراويله وجف فمه وانفتح لاهثاً. وكان صدره يعلو ويهبط كمنفاخ الحداد وقلبه يدق كالمطرقة، وبدأت ساقاه تخوران كأنهما ليستا منه، واستولى عليه الفزع خشية أن يموت من شدة الإنهاك.

ورغم الخوف من الموت لم يستطع أن يقف، بل قال في نفسه:

ـ سيقولون إنني مغفل لو وقفت الآن بعد أن قطعت كل هذه المسافة.

وظل يعدو ويعدو... واقترب حتى سمع رجال البشكير يشجعونه بصيحاتهم. وألهبت صيحاتهم قلبه، فجمع آخر قواه واندفع في الجري.

واقتربت الشمس من خط الأفق وبدت في وسط الضباب عظيمة الجرم حمراء كالدم.

الآن! نعم. الآن كادت تغرب!

كانت الشمس قد انحدرت جداً، ولكنه هو أيضاً كان قد قرب من الهدف جداً، وقد استطاع أن يرى الناس على الربوة يلوحون له بأيديهم يستعجلونه، واستطاع أن يرى قبعة الفراء على الأرض والنقود فوقها والرئيس جالس على الأرض ممسكاً جنبيه.

وتذكّر باخوم حلمه وقال في نفسه:

ـ هذه أرض واسعة. ولكن يدعني لله أعيش فيها؟ لقد فقدت حياتي. لقد فقدت حياتي! لن أصل إلى ذلك المكان أبداً!.

ونظر باخوم إلى الشمس التي كانت قد حاذت الأرض واختفى جانب منها، فاندفع بكل قوته، وقد انحنى جسده إلى الأمام حتى صارت قدماه لا تكادان تتبعانه كيلا يسقط.

وما كاد يصل إلى الربوة حتى أظلم الجو فجأة، ونظر فإذا الشمس قد غربت، فندت منه صرخة. وقال لنفسه: «لقد كان كل تعبي عبثاً».

وهمَّ بالوقوف... ولكن صيحات الرجال ما تزال تستحثّه وتشجعه وتذكره أنه وإن كانت الشمس قد غابت عنه هو إلا أنهم فوق الربوة ما زالوا يشاهدونها. فتنفس نفساً طويلاً، وجرى صاعداً الربوة، فوجد الضوء ما يزال هناك.

ثم وصل إلى القمة ورأى القبعة وقد جلس أمامها رئيس القبيلة يقهقه وقد أمسك جنبيه. فتذكر الحلم مرة أخرى، وصرخ، وأحس بساقيه تخوران من تحته فانطرح على الأرض ومد يديه فأمسك القبعة.

وصاح الرئيس: «هذا شخص هائل! لقد كسب أرضاً واسعة!»

وأسرع خادم باخوم نحوه يحاول أن يرفعه عن الأرض، ولكنه رأى الدم يتدفق من فمه...

لقد مات باخوم!

ومصمص رجال البشكير شفاههم ليظهروا عطفهم وأسفهم. والتقط الخادم المعول، فحفر مقبرة تسع باخوم، ودفنه هناك. ستة أقدام من رأسه إلى عقبيه، كانت كل ما احتاج إليه من الأرض!!

زوجَة رَجل آخر

لدستويفسكي

بتصرف خفيف

(1)

ـ من فضلك يا سيدي... اسمح لي أن أسألك.

واضطرب الشاب الذي وجّه إليه الخطاب، ونظر بشيء من الفزع إلى الرجل الذي يفاجئه بهذه الطريقة في الساعة الثامنة مساء في الطريق العام.

وقال الرجل ـ وكان يرتدي فراء دب فاخر ـ : «معذرة لإقلاقك، ولكنني لست أدري في الواقع... ستصفح عني بلا ريب؛ فأنت ترى أنني مضطرب قليلاً...»

وعند ذلك فقط لاحظ الشاب أن الرجل كان مضطرباً حقاً. وكان وجهه المجعد ممتقعاً وكان صوته يرتجف وكلماته تتعثر في لسانه. وكان يبذل جهداً عنيفاً ليوجّه سؤالاً لا يتفق مع كرامته، إلى شخص ربما كان أقل منه مرتبة. وعلى الرغم من ذلك فقد كان يشعر بالضرورة الملحة في التوجّه بسؤاله إلى شخص ما.

وكان السؤال في الحق غريباً، مهيناً حين يتوجّه به رجل له هذه الفخامة البادية في الفراء الفاخر، الذي يضفي على لابسه ـ بلونه الأخضر وما وُشّي به من تطريز ـ كثيراً من معاني الاحترام.

وقد كانت تلك الملابسات تزيد من ارتباك الرجل واضطرابه، حتى إنه لم يعد يحتمل الموقف وقرر بينه وبين نفسه أن يكبت عواطفه الثائرة. ثم يحاول بأدب أن يضع حداً للإشكال الذي أوجد نفسه فيه.

ـ معذرة... إنني لست أنا... أوه. ولكنك لا تعرفني في الواقع. اغفر لي إزعاجك. لقد غيرت رأيي!

ورفع قبعته تأديباً وابتعد مسرعاً.

ـ ولكن اسمح لي...

ولم يسمع الرجل شيئاً لأنه كان قد اختفى في الظلام تاركاً الشاب في حالة ذهول. ولما أفاق من ذهوله آخر الأمر، راح يفكر في شؤونه الخاصة ويذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يحدق بانتباه في بوابات منزل قد اختفت طبقاته العليا في الضباب الذي بدأ يغشى المكان، مما أشاع الرضا في نفس الشاب لأنه يجعل حركاته الذاهبة الآيبة أخفى على الملاحظة.

ـ لا تؤاخذني!

وارتجف الشاب مرة أخرى ورأى الرجل ذا الفراء واقفاً أمامه.

وعاد الرجل يقول: أرجو المعذرة مرة أخرى... ولكنك... إنك بلا ريب رجل شريف! لا تجعل بالك إلى مركزي الاجتماعي. ولكني في حالة اضطراب عنيف. فلنبحث المسألة رجلاً لرجل. إن الماثل أمامك يا سيدي شخص يتشوف إلى خدمة متواضعة...

ـ حسناً... إذا كنت أستطيع... ما الذي تريد؟

فقال الرجل العجيب وعلى فمه ابتسامة مريرة: ربما تخيلت أنني أسألك مالاً.

ثم ضحك ضحكة جنونية وامتقع لونه.

ـ أوه. لا. لا.

ـ أنا أرى أنني أتعبتك؟ لا تؤاخذني. إنني لا أكاد أحتمل نفسي. تذكر أنك ترى أمامك رجلاً في حالة اضطراب تكاد تكون جنوناً، ولكن لا ترتب على ذلك أية نتيجة.

فأجابه الشاب بصبر نافد وهو يهز رأسه مشجعاً: «تحدث في الموضوع. في الموضوع».

ـ تصور! شاب صغير مثلك يذكرني بألا أخرج عن الموضوع، كأنما أنا طفل لا يزن كلامه! لا بد أنني أهرف!... كيف أبدو لناظريك في هذا الموقف المسف؟ خبّرني بصراحة.

ولم يجب الشاب فقد استولى عليه الارتباك. فعاد الرجل يقول وقد وجد شجاعته آخر الأمر:

ـ اسمح لي أن أسألك بصراحة: ألم ترَ سيدة؟ هذا كل ما أريد أن أسألك عنه.

ـ سيدة؟

ـ نعم سيدة!

ـ بلى قد رأيت... ولكن ينبغي أن أقول إن كثيراً منهن قد مر من هنا...

فقال الرجل بابتسامة مريرة:

ـ كذا! إنني ذاهل. لم أكن أقصد أن أسأل عن ذلك. لا تؤاخذني. لقد قصدت أن أقول: ألم ترَ سيدة تلبس على كتفيها فراء ثعلب، وعلى رأسها قبعة من القطيفة الداكنة وعلى وجهها نقاب أسود؟

ـ لا. لم أرَ سيدة كهذه... لا. لا أظن أني رأيتها!

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا تؤاخذني.

وأراد الشاب أن يوجّه إليه سؤالاً. ولكنه اختفى مرة أخرى، وترك الشاب للمرة الثانية في ذهول.

وقال الشاب في نفسه والاضطراب بادٍ عليه: «فليذهب به الشيطان!».

وعاد، وقد تملكه الغضب، يذهب ويجيء في حذر أمام بوابات المنزل المرتفع، ونفسه تغلي من الداخل، وساءل نفسه: لماذا لم تخرج حتى الآن؟ لقد أوشكت الساعة أن تتم الثامنة.

وعند ذلك دقت ساعة المدينة ثماني دقات.

ـ أوه. فليذهب الشيطان بك!

ـ لا تؤاخذني!...

فقال الشاب مقطباً ومعتذراً.

ـ لا تؤاخذني في تحدثي بهذه اللهجة... ولكنك فاجأتني بشكل أرعبني.

ـ ها أنذا قد عدت. لا بد أنك تتمثلني شخصاً متعباً وغريب الأطوار.

ـ أرجو أن تشرح المسألة بلا تلكؤ ولا ضجة. لست أدري أيّ شيء تريد...

ـ إنك في عجلة. سأقص عليك كل شيء بصراحة وبدون إضاعة للوقت. لم يكن في الوسع تغيير ما حدث. وقد تجمع الظروف أحياناً قوماً مختلفي المزاج تمام الاختلاف... ولكنك نافد الصبر فيما أرى أيها الشاب الصغير، فلندخل في الموضوع... وإن كنت لا أعلم على وجه اليقين كيف أقص عليك كل شيء، وينبغي أن أعلم أين ذهبت تلك السيدة.

ـ من هي؟

ـ لا أظن أن هناك ما يدعوك إلى معرفة اسمها أيها الشاب الصغير.

ـ هيه. هيه. ماذا بعد ذلك؟

ـ انظر بأيّ لهجة تخاطبني! لا تؤاخذني. فربما كنت قد أسأت إليك حين دعوتك «الشاب الصغير». ولكني لم أقصد... بالاختصار... إذا كنت ترغب في إسداء خدمة عظيمة إليّ فها هي ذي المسألة:

سيدة. أعني سيدة راقية من عائلة كبيرة جداً. من معارفي. إنني مندوب لهذه المهمة. أما أنا فلا عائلة لي. أترى؟

ـ أوه.

ـ ضع نفسك في موقفي أيها الشاب الصغير (أوه. لقد فعلتها مرة أخرى. لا تؤاخذني، فقد عدت إلى تسميتك الشاب الصغير) كل دقيقة غالية. تصور فقط هذه السيدة... ولكن ألا تستطيع أن تخبرني من يقطن

في هذا المنزل؟

ـ كثير من الناس يقطنون هنا.

فقال الرجل وهو يضحك محافظة على آداب اللياقة!

ـ نعم ذلك حق. إنك على صواب. إنني أشعر باضطراب عنيف... ولكن لماذا تخاطبني بتلك اللهجة؟ إنني أعترف بصراحة أني ذاهل. ومهما يكن من كبريائك فقد رأيت من تواضعي ما يرضيك. أقول إن سيدة ذات سلوك شريف، أعني نوازع هوجاء. لا تؤاخذني فإني مضطرب.

فنظر الشاب بعطف إلى الرجل الذاهل الذي راح يحدق فيه وعلى فمه ابتسامة لا معنى لها. ثم مد الرجل يده المرتعشة، فأمسك بها طرف المعطف الذي يرتديه الشاب، فتراجع هذا الأخير قليلاً، ثم قال بعد تردد:

ـ اسمع! إنني لا أعلم لماذا أنت في هذه الحال من الاضطراب. ولكن قل لي بصراحة. أحسب أنك رجل مخدوع؟

ـ إنك تحطمني تحطيماً! ولكنني أعترف لك أن المسألة كما تقول. ولكن هذا يحدث لكل إنسان! لقد أثّر تلطفك في نفسي أثراً بالغاً... يحدث في محيط الشبان... وإن كنت أنا لم أعد شاباً... ولكنها العادة كما تعلم. حياة العزوبة... وكلنا نعلم أنه في محيط العزاب...

ـ إي نعم كلنا نعلم. كلنا نعلم! ولكن كيف أستطيع أن أقدم لك مساعدة؟

ـ لست أعلم أين ذهبت السيدة. كل ما أعلمه أنها في هذا المنزل. ولكني حين رأيتك تسير جيئة وذهاباً في المكان نفسه فكّرت في... أنت

ترى أنني في انتظار سيدة... وأعلم أنها هنا. وأود لو قابلتها وأفهمتها ما في عملها من الخروج عن اللياقة... في الحقيقة أنت تفهمني!

ـههم! ثم ماذا؟

ـ لست أعمل لحسابي الخاص. لا تظن ذلك. إنها زوجة رجل آخر! وزوجها واقف هناك عند جسر فوزنسنسكي. وهو يريد أن يضبطها، ولكنه لا يجرؤ على ذلك. وما زال كارهاً أن يصدق شكوكه كما هي الحال مع كل زوج (وهنا بذل جهداً كبيراً لكي يبتسم) أنا صديق له. وتستطيع أن ترى بنفسك أنني رجل ذو مكانة. فلا يمكن أن أكون كما تتصورني.

ـ طبعاً. طبعاً.

ـ وهكذا ترى أنني أبحث عنها، وقد ألقيت هذه المهمة على عاتقي (يا للزوج التعيس!) ولكني أعرف أن السيدة خبيثة، وهي تعمل أعمالها بدهاء وخفية. وينبغي أن أعترف أن الطباخ أخبرني أنها تجيء إلى هنا. وقد انطلقت كالمجنون حالما سمعت هذا النبأ. أريد أن أقبض عليها. لقد ساورتني الشكوك منذ زمن. ولهذا أردت أن أسألك، وأنت تسير هنا... أنت... أنت... لا أدري...

ـ إيه! ما الذي تريد؟

ـ نعم... ليس لي شرف معرفتك، ولست أجرؤ أن أسألك من أنت؟

وما شأنك؟ اسمح لي أن أقدم إليك نفسي على أيّ حال. أنا سعيد بلقائك!...

ومدّ الرجل يده المرتعشة من شدة الاضطراب، وصافح الشاب بحرارة. ثم أضاف:

ـ كان يجب أن أبدأ بهذا. ولكني غفلت عن أبسط آداب اللياقة.

ولم يكن الرجل يستطيع أن يقف ساكناً وهو يتحدث. فقد راح يتلفت حواليه في قلق ويبدل مواضع قدميه، بينما ظل قابضاً على يد الشاب كأنما هو غريق يحاول النجاة. ثم استطرد يقول:

ـ ها أنت ذا ترى. لقد قصدت أن أخاطبك بطريقة ودية. واغفر لي أن آخذ حريتي في الحديث معك. لقد قصدت أن أطلب إليك أن تسير من الجانب الآخر إلى الشارع الجانبي حيث المدخل الخلفي للمنزل، وأنا من جانبي سأسير أمام واجهة المنزل، فلا تفوتنا رؤيتها. وإني لأخشى أن تفوتني رؤيتها وأنا بمفردي. وأنا حريص على ألا يفوتني ذلك. فعندما تراها أسرع بإيقافها وناديني... ولكني مجنون! ما رأيت إلا اللحظة سخف هذا الاقتراح وبعده عن طبائع الأشياء.

ـ لا. لا نعم!

ـ لا تحاول أن تلتمس لي الأعذار. إنني مضطرب إلى أبعد الحدود. وما أحسست من قبل بمثل هذا الاضطراب. كأنما أواجه الحكم بالإعدام! يجب أن أعترف ـ سأكون معك شريفاً ومستقيماً أيها الشاب الصغير. لقد ظننت في الحقيقة أنك أنت العشيق!

ـ أي إنك ـ ببساطة ـ تريد أن تعلم ما شأني هنا؟

ـ إنك رجل شريف يا سيدي العزيز. إنني أبعد ما أكون عن القول بأنك أنت هو. ولن أوجه إليك الإهانة بهذا التشكيك. ولكن... أعطني كلمة شرف أنك لست أنت العشيق!

ـ حسن جداً. إنني أعطيك كلمة شرف أنني محب ـ ولكن لغير زوجتك
ـ وإلا فما كنت أكون هنا في الطريق، بل أكون معها الآن!

ـ زوجتي! من أدراك أنها زوجتي أيها الشاب؟ إنني أعزب... إنني أعزب... إنني... أنا نفسي محب!

ـ لقد أخبرتني أن هناك زوجاً على جسر فوزنسنسكي...

ـ لا شك. لا شك. إنني أتحدث بكثير من الحرية؛ ولكن هناك روابط أخرى! وأنت تعلم أيها الشاب...

ـ أجل. أجل. ما في ذلك شك...

ـ أعني أنني لست زوجها أصلاً...

ـ أجل لا شك. ولكني أقول لك بصراحة إنني وقد طمأنتك أحب أن أطمئن أنا أيضاً. وأنت تسبب لي ربكة واضطراباً. فأنا أعدك أن أناديك إذا رأيت من تبحث عنها. ولكني أرجو أن تبتعد من هنا، وتتركني أخلو إلى نفسي فأنا أيضاً منتظر...

ـ طبعاً. طبعاً. سأبتعد من هنا. وإني لأحترم القلق العنيف الذي تشعر به في قلبك. إنني أفهمك فهماً تاماً في هذه اللحظة!

ـ طيب... طيب...

ـ وداعاً حتى نلتقي ثانية! ولكن اسمح لي أيها الشاب ها أنذا مرة أخرى... لست أدري كيف أقولها... أعطني كلمة الشرف مرة أخرى ـ كسيد شريف ـ أنك لست عشيقها.

ـ أوه... يا رحمة السماء!

ـ وسؤال آخر وهو الأخير: هل تعرف لقب زوج... أعني السيدة التي تتوجّه إليها بعواطفك؟

ـ طبعاً أعرفه. وليس هو اسمك. هذا كل ما في المسألة.

ـ وكيف تعرف اسمي؟

ـ خير لك أن تذهب. إنك تضيع الوقت، وفي إمكانها أن تفلت منك ألف مرة. ما الذي تريد؟ إن السيدة التي تبحث عنها تلبس فراء ثعلب وقبعة من القطيفة الداكنة، بينما التي أبحث عنها تلبس معطفاً من الصوف وقبعة من القطيفة الزرقاء الباهتة... أي شيء تريد بعد هذا؟

ـ يا لعنة السماء! ربما كان ذلك كذلك. ولكن السيدة التي أبحث عنها لا تجيء إلى هنا.

ـ أين هي إذن؟

ـ وما الذي يهمك في ذلك؟

ـ يجب أن أعترف أنني ما زلت...

ـ أفّ! الرحمة الرحمة! إنك شخص لا يملك ذرة من اللياقة. مطلقاً. إن لصديقتي أصدقاء هنا. في الطابق الثالث المطل على الشارع. لماذا تريدني أن أخبرك بأسمائهم.

ـ يا لله! إن لي أيضاً أصدقاء في الطابق الثالث ونوافذهم تطل على الشارع... الجنرال...

ـ جنرال!

ـ إي نعم جنرال. إذا أردت فإني أخبرك أيّ جنرال هو.

الجنرال يولوفتسين.

ـ اللعنة اللعنة! قل غير هذا... ! ليس هو الذي أعنيه.

ـ ليس هو؟

ـ لا ليس هو.

وصمت الرجلان معاً وراح كل منهما ينظر إلى الآخر باضطراب.

ثم صاح الشاب وهو ينفض عنه الذهول والتردد: لماذا تنظر إليّ هكذا؟

فقال الرجل باضطراب شديد:

ـ يجب أن أعترف...

ـ من فضلك. أفصح من فضلك. فلنتكلم الآن بتعقل. إن المسألة تتعلق بنا جميعاً. فأوضح لي. من الذي تعرفه هناك؟

ـ تعني من هم أصدقائي؟

ـ أجل أصدقاؤك...

ـ أترى...؟ أترى...؟ إنني أحكم من نظراتك أن حزري كان صواباً!

ـ عليك اللعنة! أأنت أعمى؟ إنني واقف هنا أمامك. ولست معها. على أي حال لست أبالي أن تقول ذلك أو لا تقول!

ودار الشاب في ثورته مرتين على عقبيه وهو يلوح بيده بازدراء:

ـ إنني لم أعنِ شيئاً ـ أؤكد لك. وكرجل شريف، سأقص عليك كل شيء. في مبدأ الأمر كانت زوجتي تجيء هنا بمفردها. ولما كانوا أقرباء

لها فلم أشك في الأمر. وبالأمس قابلت سعادة الجنرال فأخبرني أنه انتقل من هنا إلى مسكن آخر منذ ثلاثة أسابيع وزوجته... أعني ليست زوجتي بل زوجة رجل آخر (زوجها على جسر فوزنسنسكي)... أخبرتني تلك السيدة أنها كانت في زيارة الجنرال أول من أمس. أعني في هذا المسكن... وأخبرني الطباخ أن مسكن سعادته السابق قد أصبح يقطنه شاب يدعى بوبينتسن...

ـ لعنة الله على ذلك! لعنة الله!

ـ يا سيدي العزيز! إنني فزع. إنني مذعور!

ـ وماذا يعنيني أنا إذا كنت فزعاً أو مذعوراً. آه لقد مرّ شخص من هناك...

ـ أين؟ أين؟ سأجري أنا بعيداً... وكل ما عليك هو أن تصيح «إيفان أندريتش» إذا وجدتها.

ـ حسناً. حسناً!

وانطلق الرجل مبتعداً. وعاد الشاب يقول:

ـ يا للعجب! إيفان أندريتش!

فعاد إيفان أندريتش لاهثاً يقول:

ـ ها أنذا... ما الخبر؟ ما الخبر؟ أين؟

ـ لا... لم أقصد شيئاً... لقد أردت أن أعرف اسم تلك السيدة.

ـ جلاف...

ـ جلافيرا!؟

ـ لا. ليس جلافيرا!... معذرة لا أستطيع أن أخبرك باسمها.

وحينما قال الرجل (المهم) ذلك، كان وجهه بلون الورقة البيضاء.

ـ ما من شك أنها ليست جلافيرا! انا أعلم أنها ليست جلافيرا. والسيدة التي أريدها لا تدعى جلافيرا!

ـ أرأيت! كيف علمت أن اسمها جلافيرا!

ـ يا للشيطان! حقاً! لم يكن ينقصني إلا أن أقع معك في إشكال أنت أيضاً! أنت تقول إنها لا تدعى جلافيرا!!

ـ يا سيدي العزيز! ما أغرب طريقتك في الحديث!

ـ يا للشيطان! كأن هذا يهم في هذه اللحظة! من تراها هي!؟ أهي زوجتك؟

ـ لا... أعني أنني لست متزوجاً... ولكني لم أكن لأقذف بالشيطان هكذا في وجه رجل محترم في حالة اضطراب. رجل ـ لا أقول يستحق التقدير ـ ولكنه على أي حال رجل متعلم.

وأنت لا تفتأ تقول يا للشيطان... يا للشيطان.

ـ فليذهب الشيطان بك ـ هل فهمت؟

ـ لقد أعماك الغضب. ولن أقول لك شيئاً. يا لله. من هذا؟

وفي تلك اللحظة سمع صوت حركة وضحك، ونزلت فتاتان جميلتان فاندفع الرجلان نحوهما، ولكنهما لم يجدا فيهما مأربهما، ثم قال الشاب:

ـ ألم يكن من الخير أن نصعد إلى هناك؟

ـ أين؟

ـ إلى مسكن بوبينتسن.

ـ لا. هذا خارج عن كل تقدير.

ـ لماذا؟

ـ بودي طبعاً أن أذهب، ولكنها حينئذٍ تلفّق لي حكاية تتخلص بها وتقول إنها ذهبت إلى هناك عامدة لتتبع حركاتي ثم توقعني في مشكل!

ـ يا لك من رجل عجيب! تعلم أنها ربما كانت هناك، ثم ـ لسبب لا أعلمه ـ... الواجب عليك أن تذهب إلى مسكن الجنرال...

ـ ولكنك تعلم أنه انتقل من هنا!

ـ ليس هذا مهماً. هي قد ذهبت إلى هناك، فلتذهب أنت أيضاً. ألست تفهم؟ تصرف كما لو كنت لا تعلم أن الجنرال قد انتقل من مسكنه. اذهب كما لو كنت أتيت لتصطحب زوجتك في عودتها إلى المنزل؟

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم تجد من تبحث عنها. أفّ لك. يا لك من... مغفل!

ـ وما الذي يهمك من بحثي؟ هل رأيت؟ هل رأيت؟

ـ ماذا بك أيها الرجل الطيب؟ هل عدت إلى ظنك القديم؟ رحمتك يا رب! كان ينبغي أن تخجل من هذا أيها الرجل السخيف... أيها الرجل المغفل؟

ـ أجل. ولكن ما سرّ هذا الاهتمام كله؟ هل تريد أن تعرف؟...

ـ أعرف ماذا؟ ماذا؟ لعنة لله عليك! إنني لا أفكر فيك الآن... سأذهب بمفردي. وامضِ أنت في سبيلك. اذهب. اغرب!

فصاح الرجل يائساً:

ـ يا سيدي العزيز. إنك تكاد تنسى نفسك!

فقال الشاب وهو يصرّ على أسنانه ويقترب من الرجل في عنف:

ـ وماذا في هذا؟ ماذا لو نسيت نفسي، (ثم قال في هياج وهو يلوّح بيده متوعداً). أمام من نسيت نفسي؟

ـ ولكن. اسمح لي يا سيدي...

ـ من أنت؟ أمام من نسيت نفسي؟ ما اسمك؟

ـ لا أعلم عن ذلك شيئاً أيها الشاب. لماذا تريد اسمي؟ لا أستطيع أن أخبرك عنه. أنا مستعد لأيّ شيء... ولكن أؤكد لك أنني أستحق من التأدب والاحترام أكثر من ذلك. وما كان ينبغي أن تفقد اتزانك. فإذا كان شيء ما يثيرك ـ وأستطيع أن أحزر ما هو ـ فلا داعي على أيّ حال لأن تنسى نفسك... وما زلت شاباً صغيراً جداً جداً!...

ـ وماذا يهمني من أنك كبير السن؟ لا شيء في هذا عجيب؟ اذهب عني. ما الداعي لوقوفك هنا تتراقص؟

ـ تقول إنني كبير؟ كيف؟ في المقام طبعاً. ولكني لا أتراقص...

ـ أستطيع أنا أن أرى ذلك. ولكن ابتعد عني...

ـ لا سوف أبقى معك. ولا تستطيع أن تمنعني. فالمسألة تخصني أنا أيضاً. سوف آتي معك...

ـ فلتهدأ إذن ولتسكن. أمسك لسانك...

وصعد كلاهما السلّم إلى الطابق الثالث. وكان الظلام سائداً فقال الشاب:

ـ انتظر. هل معك ثقاب؟

ـ ثقاب؟ أيّ ثقاب؟

ـ ألا تدخن السيجار؟

فقال الرجل في ارتباك شديد:

ـ أوه. بلى معي معي. ها هو ذا. انتظر...

ـ أفّ. يا لك من مغفل... ! أظن أن هذا هو الباب...

ـ هذا؟ هذا؟ هذا؟

ـ هذا. هذا. هذا. ما الذي يجعلك تصرخ هكذا؟ صه!

ـ يا سيدي العزيز... إنك شخص مستهتر!

ثم لمع النور وقال الشاب:

ـ ها هو ذا الباب، وهذه هي اللافتة النحاسية. هذا مسكن بوبيتسن. هل ترى كلمة بوبيتسن؟...

ـ نعم. أراها. أراها...

هل ينبغي أن نطرق الباب:

ـ نعم يجب أن نصنع ذلك...

ـ فلتطرق إذن...

ـ لا. ولماذا أطرق أنا؟ بل تبدأ انت. اطرق أنت!

ـ يا جبان!

ـ أنت نفسك جبان!

ـ اغرب عني!

ـ إنني أكاد آسف على الإفضاء إليك بسرّي. أنت...

ـ أ؟...؟ ما الذي تريد أن تقول عني؟

ـ أنت تستغل اضطرابي... فأنت ترى أنني مضطرب...

ـ ولكن هل هذا يهمني؟ كل ما أرى أنه شأن مضحك. ولا شيء غير هذا!!

ـ لأيّ شيء أنت هنا؟

ـ ولأيّ شيء أنت هنا أيضاً؟

فقال الرجل ساخطاً:

ـ أخلاق عالية!

ـ ما الذي تقول عن الأخلاق؟ ألا تنظر إلى نفسك؟

ـ هذه قلة أدب!

ـ أيّ شيء؟

ـ حسبانك أن كل زوج مخدوع هو رجل ضعيف الشخصية.

ـ هل أنت الزوج؟ لقد حسبت أن الزوج على جسر فوزنسنسكي! فما الذي يهمك أنت في الأمر؟ ولماذا تتطفل؟

ـ إني أعتقد تماماً أنك أنت العشيق!

ـ اسمع! إذا مضيت على هذا النحو من الحديث فإني سأضطر إلى الاعتقاد بأنك ضعيف الشخصية! أعني... هل تعلم من؟

فقال الرجل وهو يتراجع إلى الوراء كأنما ألقي عليه ماء يغلي.

ـ تريد أن تقول: إنني أنا الزوج؟

ـ صه. أمسك لسانك. هل تسمع؟

ـ ينبغي أن تعترف أنك شاب صغير جداً.

ـ أمسك لسانك!

ـ إنني أوافقك لا شك في فكرتك: إن الزوج في مثل هذه الحالة يكون ذا شخصية ضعيفة...

ـ أفلن تمسك لسانك؟ أفّ!

ـ ولكن لماذا تضطهد الزوج التعيس إلى تلك الدرجة؟ وسُمع صوت في داخل المسكن، ولكن الصوت انقطع سريعاً فقال الرجل:

ـ أتراها هي؟

ـ هي. هي. هي. ولكن لماذا تشغل نفسك بالمسألة؟ إنها ليست مشكلتك أنت.

فتمتم الرجل وقد امتقع لونه وازدرد لعابه بصعوبة.

ـ يا سيدي العزيز. يا سيدي العزيز: إنني دون شك مضطرب جداً. وتستطيع أن ترى بنفسك موقفي المهين. ولكنا في الليل. أما غداً... وإن لم يكن من المحتمل أن نلتقي غداً ـ ولكني لا أخاف أن ألقاك. ثم إنه ليس أنا؛ ولكنه صديقي الواقف على جسر فوزنسنسكي. إنه هو حقاً وصدقاً! وهي زوجته. إنها زوجة رجل آخر. يا له من مسكين! وأؤكد لك أن صلتي به وثيقة جداً. ولو سمحت لي لقصصت عليك كل شيء. إنني له صديق حميم ـ كما تستطيع أن ترى بنفسك، وإلا ما كنت الآن في مثل هذا الاضطراب من أجله ـ كما ترى نفسك ولقد طالما قلت له: «لماذا تتزوج يا بني؟ إن لك مركزاً ولك ثروة. وأنت محترم مهيب فلِمَ تضحّي بهذا كله في سبيل امرأة ذات دلال وغزل؟ فلتفكر في هذا ملياً»، فيقول لي: «لا، إنني مصمم على الزواج... الهناءة المنزلية!» ها هي ذي الهناءة المنزلية! لقد كان في أيامه الخالية يخدع الأزواج، وهو الآن يشرب الكأس... أرجو المعذرة. ولكن هذا الشرح كان ضرورياً للغاية. إنه رجل تعيس. وإنه يشرب الكأس... الآن!

وعند ذلك شهق الرجل كأنما كان يبكي حقاً. وصرّ الشاب على أسنانه من الغيظ وهو يقول:

ـ لعنة الله عليهم جميعاً! في الدنيا كثير من المغفلين. ولكن من أنت؟

ـ ينبغي أن تعترف أنني كنت معك لطيفاً وصريحاً بينما أنت تحدثني بتلك اللهجة!

ـ لا. لا تؤاخذني... ما اسمك؟

ـ لماذا تريد أن تعرف اسمي؟

ـ آه!

ـ لا أستطيع أن أخبرك باسمي...

فقال الشاب بسرعة:

ـ هل تعرف شابرين؟

ـ شابرين!!!

فقال الشاب مقلداً:

ـ نعم شابرين. ألا تفهم؟

فأجاب الرجل فزعاً:

ـ لا. أيّ شابرين؟ إنه ليس شابرين. إنه رجل مهيب جداً! ولكني أستطيع أن ألتمس لسوء أدبك عذراً من غيرتك التي تعذبك.

ـ إنه وغد سافل. مرتشٍ يسرق أموال الحكومة. وسيُقبض عليه من أجل ذلك.

فقال الرجل ممتقعاً:

ـ اسمح لي. إنك لا تعرفه. إنني أرى أنك لا تعرفه أصلاً.

ـ لست أعرفه شخصياً ولكني أعرفه من بعض المقربين إليه جداً.

ـ من أيّ الناس يا سيدي؟ إنني مضطرب كما ترى...

ـ مغفل! مغفل تأكل قلبه الغيرة ولا يرعى زوجته. ذلك هو. إن كنت تريد أن تعرف.

ـ معذرة أيها الشاب. إنك مخطىء خطأ بالغاً...

عند ذلك سُمعت حركة في مسكن بوبينتسن، وفُتح أحد الأبواب الداخلية فسُمعت منه أصوات. وقال الرجل وقد شحب وجهه كالورقة البيضاء:

ـ أوه. إنها ليست هي! أنا أعرف صوتها. لقد فهمت الآن كل شيء. ليست هي!

ـ صه.

واستند الشاب إلى الحائط يتسمع. فقال الرجل:

ـ يا سيدي العزيز. إني ذاهب. إنها ليست هي وأنا مسرور بذلك.

ـ وهو كذلك. فلتذهب إذن.

ـ ولماذا أنت باقٍ إذن؟

ـ وماذا يعنيك من هذا؟

وفتح الباب فلم يتمالك الرجل أن يندفع نازلاً على السلم. وخرج رجل وامرأة فمرّا بالشاب في الظلام فوقف قلبه عن الخفق لحظة... وسمع صوتاً أنثوياً يعرفه جيداً ثم صوت رجل أجش لا يعرفه البتة. وقال الصوت الأجش:

ـ لا عليك. سأحضر عربة.

ـ وهو كذلك. افعل.

ـ ستكون العربة هنا في لحظة.

وبقيت المرأة وحدها فصاح بها الشاب وهو يقبض على ذراعها بعنف:

ـ جلافيرا! أين عهودك؟

ـ أوه. من هذا؟ أهذا أنت يا تفوروجوف؟ يا لله! ماذا تفعل هنا؟

ـ من هذا الذي كنت معه؟

ـ هذا زوجي. اذهب. ابتعد. سوف يجيء الآن من... من الداخل. من عند بوبينتسن. اذهب بحق السماء. اذهب.

ـ لقد انتقل بولوفتسن من هنا منذ ثلاثة أسابيع! أعرف كل شيء!

فصرخت السيدة واندفعت نازلة على السلم. ولحق بها الشاب هناك فسألته:

ـ من الذي أخبرك؟

ـ زوجك يا سيدتي. إيفان أندريتش. إنه هنا أمامك يا سيدتي...

وكان إيفان أندريتش حقيقة واقفاً عند الباب الخارجي، فصاح عند رؤيتها:

ـ آه! أهذا أنت.

فصاحت جلافيرا بتروفنا وهي تندفع بسرور غير مفتعل.

ـ آه! أهذا أنت؟ إنك لا تتصور يا عزيزي ما حدث لي... لقد ذهبت لأزور أسرة بوبينتسن. تصور... أنت تعلم أنهم يقطنون الآن عند جسر إسماعيلفتش. لقد أخبرتك بذلك. ألا تذكر؟ واستأجرت عربة من هناك ولكن الخيل أصابها الذعر فانطلقت وكسرت العربة وألقتني خارجها على بعد مئة متر من هنا. واضطرب السائق وبقيت في يأس، ومن حسن الحظ أن المسيو تفوروجوف...

ـ ماذا!

(وكان مسيو تفوروجوف في تلك اللحظة أقرب إلى المومياء منه إلى المسيو تفوروجوف).

ـ رآني هنا مسيو تفوروجوف فأخذ على عاتقه أن يحميني. أما وأنت هنا فلا يسعني إلا أن أقدم لك شكري الحار يا إيفان إليتش...

ومدت السيدة يدها إلى إيفان إليتش الذي كان الموقف قد أذهله عن نفسه فكاد يقرص يدها بدلاً من أن يضغط عليها. واستطردت الزوجة:

ـ المسيو تفوروجوف من معارفي. كان لقاؤنا في مرقص سكورلوبوف. أعتقد أنني أخبرتك بذلك. ألا تذكر يا كوكو؟

فقال الرجل المدعو كوكو:

ـ طبعاً. طبعاً! آه. تذكرت. أنا مسرور بمعرفتك. وضغط على يد مسيو تفوروجوف بحرارة.

ثم قال بصوت أجش:

ـ من هذا؟ ما معنى هذا؟ أنا منتظر...

ووقف أمام الجميع رجل طويل شاذ الطول وأخرج منظاراً وراح يحدق بشدة في الرجل ذي الفراء. فقالت السيدة بلهجة عذبة:

ـ أوه! مسيو بوبينتسن!؟ من أين أتيت؟ يا له من لقاء!، تصور لقد حدث لي منذ لحظة حادثة في عربة. ولكن ها هو ذا زوجي! يا جان! مسيو بوبينتسن الموظف في مرقص كاربوف.

ـ مسرور بلقائك. مسرور جداً! ولكني سأحضر عربة في الحال يا عزيزتي.

ـ أجل فلتفعل يا جان. فلتفعل فما زلت أشعر بالخوف! إن بدني كله يرتعد وأشعر بدوار.

ثم همست إلى تفوروجوف:

ـ في الحفلة التنكرية هذا المساء!

وقالت موجهة الكلام إلى بوبينتسن:

ـ وداعاً يا مسيو بوبينتسن. ربما التقينا غداً في مرقص كاربوف.

ـ لا اسمحي لي. لن أكون هناك غداً. لست أدري شيئاً عن الغد إذا كان مثل هذا.

ثم لاك مسيو بوبينتسن في فمه بضع كلمات ودخل إلى عربته وانطلق بها.

ووقف الرجل ذو الفراء بجانب عربته وبدا عليه كأنه عاجز عن القيام بأيّ حركة. ونظر نظرة بلهاء إلى الشاب الذي ابتسم ابتسامة لا معنى لها.

قال الرجل: لست أدري...

فأجاب الشاب وهو ينحني انحناءة ملؤها الود والدهشة:

ـ معذرة سروري عظيم بمعرفتك.

ـ سروري عظيم ـ عظيم.

ـ أظنك قد فقدت جرموقك (غطاء حذائك).

ـ أنا؟ أوه. نعم. أشكرك. أشكرك. إني محق في احتفاظي بجرموق من المطاط.

فقال الشاب مظهراً اهتمامه:

ـ إن القدم تدفأ جداً في المطاط.

وصاحت السيدة من داخل العربة:

ـ جان! ألست تأتي؟

ـ إنها تدفىء القدم حقاً. سأحضر في الحال يا عزيزتي. إننا نتناقش في مسألة هامة! إن الأمر بالضبط كما تقول. إنها تدفىء القدم... ولكن اسمح لي. أنا...

ـ طبعاً. طبعاً.

ـ مسرور. مسرور جداً بمعرفتك!

ودخل الرجل في العربة وانطلقت العربة مخلفة وراءها الشاب ينظر في دهشة واستغراب.

(2)

في الليلة التالية، كانت هناك حفلة تمثيلية في الأوبرا الإيطالية. ودخل إيفان أندريتش إلى المسرح مندفعاً كالقنبلة. ولم تكن تلاحظ عليه من قبل تلك الحماسة ولا هذا التعطش الحاد للموسيقى، بل كان المعروف عنه أنه مغرم بالتهويم ساعة أو ساعتين في الأوبرا الإيطالية!

ولكن هذا كان في الموسم الفائت. أما اليوم فوا أسفاه! إنه حتى في منزله لا ينام الليل.

وما إن دخل إيفان أندريتش إلى المسرح حتى راح ينفض ببصره شرفات الطابق الثاني. يا للفزع! لقد كاد قلبه يقف عن الخفقان، فقد كانت هي هناك جالسة على إحدى الشرفات! وكان الجنرال بوبينتسن وزوجته وأختها هناك أيضاً. وكذلك كان هناك ضابط ورجل آخر مدني... وحدق إيفان أندريتش بشدة ليرى ذلك المدني، ولكن الخبيث توارى بالضابط وبقي شخصه متخفياً عنه.

إنها هنا. ومع ذلك فقد قالت إنها لن تكون هنا!

لقد كان هذا الازدواج والروغان في كل خطوة من خطوات جلافيرا بتروفنا هو الذي يحطم إيفان أندريتش. وقد أثار وجود هذا المدني يأساً عنيفاً في نفسه فارتمى في مقعده خائر القوى. ومما زاد الأمر سوءاً أن الشرفة الخبيثة التي في الطابق الثاني كانت فوق مقعده تماماً بحيث لم يكن يستطيع أن يرى شيئاً مما يجري فوق رأسه. وقد زاد هذا من انفعاله وغضبه وجعله يغلي كالقدر. ومرّ الفصل الأول كله لم يفقه منه شيئاً ولا سمع منه نغمة واحدة. وقد قيل إن خير ما في الموسيقى أنها تناسب كل حالة نفسية. فالمسرور يجد السرور في أنغامها، بينما يجد المحزون فيها حزناً. وقد كان في أذني إيفان أندريتش من هذه الموسيقى عاصفة معولة زادها صخباً تلك الأصوات الحادة العنيفة التي كانت تنبعث من ورائه ومن أمامه ومن كل جانب حتى كاد قلبه أن يتمزق.

وأخيراً انتهى الفصل الأول. ولكن حدث لصاحبنا في اللحظة التي أسدل فيها الستار حادث غريب. فقد هبط على رأسه ـ الأصلع نوعاً ما ـ ما بلغت به الوقاحة أن يكون رسالة غرامية!

ولما كان المسكين أبعد ما يكون عن توقع هذا الحادث المزعج فقد

ذعر كأنما أمسك على رأسه فأراً او حيواناً مفترساً. ولم يكن لديه شك في أن الرسالة كانت رسالة غرامية، فقد كانت مكتوبة على ورقة مطيبة ومطوية طيّاً خبيثاً بحيث تكون صغيرة جداً. وربما كانت قد سقطت مصادفة في لحظة تسليمها، إذ من الجائز أن يكون الشاب المدني قد طلب البرنامج مثلاً فدست الرسالة في داخله، ولكن حادثاً بسيطاً كهزة خفيفة من الضابط أوقعت الرسالة من تلك اليد الصغيرة التي ترتعش من الاضطراب. ولا شك أن الشاب قد استاء لذلك الحادث. ولكن إيفان أندريتش كان بلا ريب أشد استياء بل انزعاجاً. فقد غرق في عرق بارد وقال في نفسه وقد أمسك بالورقة بيده: «أمر مقدور. أمر مقدور! القذيفة تجد المتهم. ولكنه عاد يقول في نفسه: لا. ليس هذا صواباً! كيف أكون أنا متهماً؟ على أن هناك مثلاً آخر يقول: «ما دمت وقعت في حظ سيىء فلن تنجو من المشاكل...».

ولم يقف الأمر عند الطنين الذي كان يسمعه في أذنيه ولا الدوار الذي أحدثه في رأسه ذلك الحادث المفاجىء. فقد جلس في مقعده كالصنم لا يجرؤ على رفع بصره، وقد اعتقد أن النظارة من كل جانب قد لاحظوا ما جدث له، مع أن المسرح في تلك اللحظة كان قد امتلأ بصيحات الإعجاب والاستزادة وطلب الإعادة.

وأخيراً تجرأ ورفع عينيه فوجد الجالس بجانبه يصفق بيديه ويضرب الأرض بقدميه ويصيح باسم الممثلة الأولى، فسرّ بذلك وقال في نفسه: «إنه لم يلاحظ شيئاً!» واستدار ليرى ما وراءه، ولكن الرجل الذي كان خلفه كان قد استدار هو الآخر وراح يحدق في الشرفات بمنظاره، فقال إيفان لنفسه: «وهذا أيضاً على ما يرام» ثم نظر متلصلصاً إلى الشرفة القريبة

فما راعه إلا سيدة جميلة تجلس هناك وقد وضعت منديلها على فمها وهي تضحك كأنها في نوبة هستيرية. فتمتم في نفسه حانقاً: «آه من هؤلاء النساء!» وخرج يدوس أقدام الناس في الطريق من شدة اضطرابه.

ولكن ما الذي جعل إيفان يعتقد أن الرسالة قد وقعت من شرفة خاصة؟ من تلك الشرفة بالذات وليس من أيّ شرفة أخرى، والمسرح يحوي أربع طبقات وأخرى في أعلى؟ ولكن العواطف لا تخضع لحكم العقل والغيرة أشد الانفعالات شذوذاً.

خرج إيفان إلى غرفة الاستراحة ووقف بجانب المصباح وفتح الرسالة وقرأ: «الليلة بعد التمثيل مباشرة في شارع ج. بجانب حارة س. في عمارة ل. في الطابق الثالث. أول باب على يمين السلم. المدخل الأمامي. أستحلفك بالله ألا تخطئ».

ولم يكن إيفان أندريتش يعرف الخط الذي كتبت به الرسالة، ولكنه لم يشك في أنها مؤامرة غرامية. وكانت أول فكرة خطرت له هي أن يتعقب المؤامرة في مهدها ويقضي على الشر قبل أن يولد. ولكن كيف؟ لقد صعد فعلاً إلى الطابق الثاني حيث كانت زوجته. ولكنه تعقل ولم يذهب إليها... بل ذهب إلى الجانب الآخر من المسرح ونظر من أحد الأبواب المفتوحة إلى الجانب المقابل. نعم! نعم! هنالك شواب وشبان جالسون في خطوط رأسية في الطوابق الخمسة. ربما سقطت الرسالة من الطوابق كلها في آن معاً! فقد كان إيفان أندريتش يتهم الناس جميعاً بتدبير المكائد ضده... ولكنه لم يصل إلى احتمال معقول ولم يجد شيئاً يخفف عنه. وظل طوال الفصل الثاني صاعداً هابطاً في دهاليز المسرح لا يجد الراحة هنا ولا هناك. وفكر في أن يذهب إلى مكتب التذاكر ليسأل الموظف المختص

عن أسماء جميع من استأجروا الشرفات في الطوابق الأربعة، ولكن المكتب كان مقفلاً... وأخيراً سمع ضجة عالية من التصفيق والهتاف، فقد كان التمثيل قد انتهى، وبدأ الصياح في طلب المغنين والمغنيات.

ولبس الرجل معطفه واندفع خارجاً إلى شارع ج. ليفاجئهم هناك ويضبطهم على غير احتراز منهم ويكشف عنهم القناع. ثم يقوم بعمل أكثر حسماً مما فعل في اليوم السابق. وسرعان ما وجد المنزل، وكان يهمّ بالدخول من الباب الخارجي حين اندفع أمامه رجل يرتدي معطفاً فدخل من الباب وصعد توّاً على السلم إلى الطابق الثالث. وخُيّل إلى إيفان أندريتش أنه هو الرجل نفسه الذي كان في المسرح، وإن لم يكن قد تمكن من تمييزه هناك بوضوح.

وسمع إيفان باباً ينفتح في الطابق الثالث بدون أن يقرع الجرس، كأنما كان الزائر منتظراً، فأسرع هو يقفز على الدرج حتى وصل إلى الطابق الثالث قبل أن يكون هناك وقت كافٍ لإغلاق الباب. وكان يقصد أن يقف عند الباب برهة ليتدبر أمره ويقرر خطة حاسمة للعمل، على أن يكون حذراً في تصرفاته. ولكن في تلك اللحظة ذاتها جاءت عربة تقرقع عند الباب الخارجي وفتح بابها بشيء من الضجة وشرعت أقدام ثقيلة تصعد السلم إلى الطابق الثالث يصحبها صوت سعال ونحنحة. ولم يستطيع إيفان أندريتش أن يقف مكانه فدخل إلى المسكن في عظمة الزوج المخدوع! واندفعت للقائه إحدى الخدم وقد ارتبكت ارتباكاً شديداً وظهر وراءها أحد الخدم الشداد، ولكن منع إيفان أندريتش من الدخول كان مستحيلاً، فقد اندفع داخلاً كالقنبلة حتى وجد نفسه فجأة في حجرة نوم وجهاً لوجه أمام سيدة صغيرة جميلة يرتجف بدنها كله من الخوف وتنظر إليه فزعة كأنها لا تكاد تفهم مما يجري حولها شيئاً.

وفي تلك اللحظة كان في الغرفة المجاورة صوت قدمين ثقيلتين تتجهان مباشرة نحو غرفة النوم. لقد كانتا هما القدمين اللتين صعدتا السلم منذ قليل، فراحت السيدة تشبك يديها وقد صار وجهها الممتقع أشد بياضاً من ردائها الأبيض، وصاحت: يا لله! هذا زوجي! وشعر إيفان أندريتش أنه قد أخطأ في الدخول إلى هذا المكان، وأنه قد ارتكب حماقة صبيانية سخيفة، وأنه لم يكن حريصاً بالقدر الذي ينبغي. ولكن لم يكن في الوسع شيء. فقد بدأ الباب ينفتح والزوج يدخل إلى الغرفة.

ولا أدري ما الذي منع إيفان أندريتش من مواجهة الزوج وإخباره أنه قد وقع في خطأ، معترفاً له بأنه ـ عن غير قصد منه ـ قد سلك هذا السلوك الشاذ. ثم يعتذر عن عمله هذا ويخرج... ولكنه قد سلك مرة أخرى سلوك الأطفال، فقد اختفى أول الأمر وراء ستارة السرير ثم أحس بالهمّ والعجز ينتابانه فنزل إلى الأرض وزحف ـ دون إحساس منه ـ تحت السرير.

ودخل الزوج يلهث ويتنحنح وحيّا زوجته تحية المساء بصوت يبدو الهرم في ثناياه، ثم ارتمى على مقعد مريح كأنما كان لتوّه يحمل حملاً ثقيلاً. وتلا ذلك صوت سعال طويل. وتحول إيفان أندريتش من نمر شرس إلى حمل وديع، وجبن وتضاءل كالفأر أمام القطة، ولم يكد يجرؤ أن يتنفس من شدة الفزع. وتحسس طريقه بحذر شديد تحت السرير ليتخذ له موضعاً مريحاً، وما كان أشد دهشته حين لمس بيده شيئاً، فإذا الشيء بدوره يتحرك ويقبض على يده! لقد كان تحت السرير شخص آخر! فقال إيفان أندريتش همساً:

ـ من هذا؟

فرد الرجل الآخر همساً:

ـ إذا كنت قد وقعت في ورطة فنم ساكناً ولا تحدث صوتاً.

ـ ولكن. اسمع!...

ـ أمسك لسانك!

وقبض الرجل الزائد (فقد كان رجل واحد كافياً لما تحت السرير) قبض الرجل الزائد على أصابع إيفان أندريتش بعنف جعله يهم بالصياح من شدة الألم.

ـ سيدي العزيز...

ـ صه!

ـ لا تقرص يدي هكذا إذن. وإلّا صرخت.

ـ وهو كذلك. فلتجرب الصراخ!

فاحمر وجه إيفان أندريتش خجلاً وصعد الدم إلى رأسه. لقد كان جديداً في هذا الشأن، لم يتعود من قبل أن يجد نفسه في مأزق حرج، وكان لا يستطيع أن يتنفس في موضعه الضيق المحدود. ولكن لم يكن في وسعه أن يعمل شيئاً. فخضع وظل ساكناً.

وأخذ الزوج يحادث زوجته:

ـ لقد كنت في زيارة بافل إيفانتش يا حبيبتي. وجلسنا نلعب الورق (سعال) نعم... (سعال) فآلمني ظهري...(سعال متصل).

واستبدّ السعال بالرجل العجوز مدة، ثم قال أخيراً والدموع تطفر من عينيه:

ـ ظهري...عمودي الفقري يؤلمني...تمدد في الشرايين...لا أستطيع أن أقف ولا أجلس... ولا أجلس...(سعال طويل).

وطالت النوبة الثانية حتى بدا كأنها ستقضي على الرجل. وتمتم في أثنائها ببضع كلمات، ولكن كان من المستحيل أن يفهم أحد ما يقول.

وهمس إيفان أندريتش بلهجة ملؤها الشقاء:

ـ يا سيدي العزيز، أستحلفك بالله أن تفسح لي قليلاً.

ـ كيف؟ لا يوجد مكان.

ـ ولكن يجب أن تعترف أنه من المستحيل عليّ أن أظل هكذا. هذه أول مرة أجد فيها نفسي ذلك الموقف السيىء.

ـ وهذه أول مرة أجد فيها نفسي في صحبة متعبة.

ـ ولكن أيها الشاب!

ـ أمسك لسانك!

ـ أمسك لساني؟! إنك غير مهذب أيها الشاب. وإذا لم أكن مخطئاً فأنت صغير جداً. أنا أكبر منك مقاماً.

ـ أمسك لسانك!

ـ يا سيدي العزيز! إنك تنسى نفسك. إنك لا تعرف لأيّ رجل توجه الحديث!

ـ لرجل ينام تحت السبرير.

ـ ولكني فوجئت... هي غلطة. أما في حالتك أنت ـ إذا لم أكن مخطئاً ـ فهو الفجور...

ـ هذا هو موضع خطئك.

ـ يا سيدي العزيز! قلت لك أنا أكبر منك...

ـ يا سيدي، نحن الاثنان في ورطة واحدة فأرجو ألا تمسك بوجهي.

ـ يا سيدي إنني لا أكاد أميز شيئاً. معذرة فالمكان ضيق.

ـ كان يجب ألا تسمن هكذا!

ـ يا للسماء! إنني ما كنت قط في مثل هذا الموقف المهين.

ـ أجل. ليس في الإمكان أن يهبط الإنسان أكثر من ذلك.

ـ سيدي. سيدي! لست أدري من أنت ولا أفهم كيف حدث ذلك. ولكن أتيت إلى هنا خطأ. لست كما تظن.

ـ لم أكن لأظن شيئاً بشأنك لو لم تندس هنا. ولكن أمسك لسانك.

ـ يا سيدي. إذا لم تتحرك قليلاً فسوف أقضي في الحال. وأؤكد لك أنك سوف تستجوب بشأن موتي...أنا رجل محترم. أنا رب أسرة. ولا يمكن أبداً أن أكون في مثل هذا الموقف!

ـ أنت الذي ألقيت بنفسك في هذا الموقف. هلمّ. تحرّك قليلاً. لقد أفسحت لك ولا أستطيع أن أصنع أكثر من ذلك!

فقال إيفان أندريتش شاكراً ومعترفاً بالجميل:

ـ يا لك من شاب نبيل! يا سيدي العزيز! إنني أرى أنني كنت مخطئاً في فهمك...

ثم تمدد في المكان الذي أفسح له وأراح أطرافه المنقبضة واستمر يقول:

ـ إنني أفهم موقفك المحرج. ولكن ليس في الإمكان عمل شيء. وإني لأرى أنك تسيء الظن بي، فاسمح لي أن أسترد اعتباري في نظرك. اسمح لي أن أقول لك من أنا. وأؤكد لك أنني أتيت إلى هنا رغم إرادتي. إنني لم آتِ للشأن الذي تتخيل. إنني في فزع واضطراب.

ـ اصمت واعلم أنه إذا سمع صوتنا فسوف يزيد موقفنا سوءاً. صه! إنه يتكلم...

وكان يبدو أن نوبة السعال قد انتهت حقاً وعاد الزوج يحادث زوجته:

ـ لقد قال لي فيدوزي إيفانوفيتش: ربما كنت مريضاً بالسل. (سعال). وقلت له إنه النقرس واضطراب المعدة. (سعال). ولكنه رجح أنه سل. ما رأيك؟ (سعال). ما رأيك يا حبيبتي أهو سل؟

ـ يا إلهي! عن أي شيء تتحدث؟

ـ السل! الأفضل أن ترتدي ملابس النوم وتنامي الآن يا حبيبتي. (سعال) لقد أصبت ببرد في رأسي اليوم.

وعاد إيفان أندريتش يقول:

ـ أفّ! بحق السماء أفسح لي قليلاً.

ـ لست أدري بالضبط ماذا بك. ألا تستطيع أن تبقى بلا حركة؟

ـ إنك حانق عليّ أيها الشاب. وإني لأرى أنك تريد أن تهينني.

ـ اصمت!

ـ لن أصمت! ولن أسمح لك أن تأمر وتنهى. إنك تستنفد صبري.

ـ اسكت. وإلّا أسكتك! لقد حططت عليّ كاللعنة، قل لي ما شأنك هنا! لو لم تكن أتيت لنمت هنا حتى الصباح بطريقة ما ثم خرجت.

ـ ولكني لا أستطيع أن أبقى هنا إلى الصباح. أنا رجل محترم مهيب. ولي دون شك روابط عائلية... هل تظن أن هذا الرجل العجوز سيقضي الليلة كلها هنا؟

ـ طبعاً. ليس كل الأزواج مثلك. فبعضهم يقضون ليلهم في منازلهم.

فصاح إيفان أندريتش وقد أشاع الخوف في بدنه قشعريرة باردة:

ـ يا سيدي العزيز! يا سيدي العزيز! أؤكد لك أنني أقضي ليالي في المنزل أيضاً. وهذه هي المرة الأولى. ولكن يا إلهي! يبدو أنك تعرفني. من أنت أيها الشاب! أخبرني في الحال. أستشفع إليك بحق الصداقة أن تخبرني من أنت؟

ـ اسمع: إذا لم تسكت فسوف ألجأ لاستعمال العنف.

ـ ولكن اسمح لي... اسمح لي يا سيدي أن أخبرك. اسمح لي أن أشرح لك هذا الموقف المزعج.

ـ لن أستمع لأيّ شرح. لا أريد أن أسمع شيئاً. اصمت وإلّا...

ـ ولكني لا أستطيع.

وتلا ذلك مناوشة تحت السرير. وسكت إيفان أندريتش، وقال الزوج لزوجته:

ـ يُخيّل لي يا حبيبتي أن قططاً تهمس هنا.

ـ قطط؟؟ وماذا بعد ذلك؟

وكان من الواضح أن السيدة لا تدري فيمَ تحدث زوجها. لقد كان الاضطراب مستولياً عليها حتى لم تعد تجد نفسها. وعاد الزوج يقول:

ـ القطط يا حبيبتي. لقد ذهبت إلى حجرة المكتب أول أمس فوجدت القط (بوسي) هناك. وهو يتمتم شو شو شو... فقلت له: ما شأنك يا بوسي؟ فعاد يقول شو شو شو. فقلت في نفسي: يا الله! أليس هذا علامة على موتي؟

ـ أي كلام فارغ هذا الذي تقوله الليلة! كان الأجدر بك أن تخجل من ذلك!

ـ لا عليك. لا تغضبي يا حبيبتي. إني أرى أنك لا تحبين التفكير في موتي. لم أكن أقصد شيئاً. ولكن الأفضل أن ترتدي ملابس النوم وتنامي يا حبيبتي. وسأجلس هنا حتى تنامي.

ـ بحق السماء! اذهب أنت، وبعد ذلك...

ـ لا تغضبي... لا تغضبي... ولكني أعتقد أنه لا بد أنه يوجد هنا جرذان.

ـ في أول الأمر كنت تقول القطط. ثم ها أنت ذا تقول الجرذان. حقّاً لست أدري ما بك.

ـ إنني على ما يرام (سعال) أنا... (سعال)... لا عليك (سعال طويل) يا رب. رحمتك بي...

فهمس الشاب:

ـ هل تسمع؟ إنك تثير من الضوضاء ما يجعله يسمعك.

ـ ولكنك لو علمت ما يحدث لي... إن أنفي يدمى.

ـ دعه يدمي. اصمت. انتظر حتى يخرج.

وعاد الزوج يقول:

ـ حقّاً يا حبيبتي. إن هناك همساً.

ـ لا لا إنه القطن الذي في أذنيك خرج من موضعه.

ـ على ذكر القطن... هل تعرفين أنه في الطابق العلوي (سعال) في الطابق العلوي (سعال...).

فقال الشاب هامساً:

ـ في الطابق العلوي؟ يا للشيطان! لقد ظننت أن هذا هو الطابق العلوي. هل يمكن أن يكون هذا هو الطابق الثاني؟

وقال إيفان أندريتش:

ـ ماذا قلت أيها الشاب؟ ما الذي يهمك من هذا بحق السماء؟ لقد ظننت أنا أيضاً أن هذا هو الطابق العلوي. قل لي يا الله: هل هناك طابق آخر؟

وقال الزوج وقد انتهى من السعال.

ـ لقد لقيت سيدة جميلة...

فقاطعته زوجته:

ـ سيدة جميلة؟!

ـ نعم... أحسب أنني أخبرتك من قبل أنني لقيت سيدة جميلة على السلّم. أم أنني لم أخبرك؟ إن ذاكرتي ضعفت (سعال) على بيرة سان جونس.

ـ ماذا؟

ـ لا بد أن أشرب بيرة سان جونس. يقولون إنها مفيدة (سعال) مفيدة!

وعادت الزوجة تسأل:

ـ تقول إنك لقيت سيدة جميلة اليوم؟

ـ من؟

ـ أنت؟ ألم يحدث ذلك؟

ـ أنا؟ متى؟

فهمس الشاب وهو يغلي غيظاً من الرجل العجوز السريع النسيان:

ـ يا لك من مومياء!

وقال إيفان أندريتش:

ـ يا سيدي العزيز: إنني أرتجف فزعاً. يا إلهي . ماذا أسمع؟ الحال مثل أمس. مثل أمس تماماً!

ثم قال الزوج:

ـ أوه. حقاً! لقد تذكرت: امرأة ماكرة... يا لهما من عينين... وقبعة زرقاء...

فصرخ إيفان: إنها هي! إن لديها قبعة زرقاء! يا إلهي!... ومع ذلك فأية امرأة ليس لديها قبعة زرقاء!

فهمس الشاب: تقول إنها هي؟ من هي؟

فقال إيفان ناصحاً: صه! إنه يتكلم!

واستطرد العجوز:

ـ يا لها من خبيثة مخادعة! إنها تأتي هنا لتقابل أصدقاءها.

وهي دائماً تبثّ الأرصاد والعيون. ويجيء أصدقاء آخرون لرؤية هؤلاء الأصدقاء أيضاً...

فقاطعته زوجته قائلة:

ـ أفّ! كيف تهتم بمثل هذه الشؤون؟

ـ لا تغضبي. لا تغضبي. لن أتكلم إذا كنت لا ترغبين في سماعي. يبدو أنك الليلة سيئة المزاج.

وعاد الشاب يقول:

ـ ولكن كيف أتيت إلى هنا؟

ـ أترى؟ أترى! إنك الآن تبدي اهتماماً بينما لم تكن تصغي من قبل!

ـ لا شيء يهمني! من فضلك لا تخبرني بشيء. يا لها من ورطة لعينة!

ـ لا تغضب أيها الشاب. إنني لست أعي ما أقول. لم أقصد شيئاً. كل ما عنيت أن أقوله هو أنه لا بد أن يكون هناك سبب وجيه يدعوك إلى الاهتمام. ولكن من أنت أيها الشاب؟

فقال الشاب كأنه يفكر في أمر خاص:

ـ أوه. اغرب عني من فضلك!

ـ ولكني سأخبرك بالموضوع كله. ربما حسبت أنني لن أخبرك أو أنني أحسّ بنفور منك. لا! هذي يدي. كل ما في الأمر أنني أشعر بضيق ولا شيء غير هذا. ولكن أستحلفك بالله أن تقول لي أولاً كيف أتيت إلى هنا؟ وأيّ مصادفة جاءت بك؟ أما عن نفسي فلست أحس أيّ ضغينة نحوك. هذي يدك ولو أنها قد اتسخت. التراب هنا كثير. ولكن هذا لا يساوي شيئاً إذا كان الشعور صادقاً.

ـ أبعد يدك عني! المكان ضيق وهو ما يفتأ يرمي يده علي!

فقال إيفان أندريتش مستعطفاً:

ـ ولكن يا سيدي العزيز! إنك تعاملني ـ واسمح لي أن أقول ذلك ـ كما لو كنت حذاء قديماً. عاملني معاملة أرقّ من هذه قليلاً. أرقّ قليلاً، وأنا أخبرك بكل شيء! ربما كنا أصدقاء. وأنا على أتمّ استعداد أن أدعوك للعشاء عندي...

وراح الشاب يتمتم بانفعال:

ـ متى يا ترى ألتقي بها؟ ربما كانت هي تنتظرني الآن... سوف أخرج من هنا حتماً!

ـ من هي؟ عمّن تتحدث أيها الشاب؟ هل تظن أن في الطابق العلوي... يا إلهي يا إلهي! لأيّ شيء ينزل بي كل هذا العقاب؟

ـ لماذا تريد أن تعرف من هي؟ على أي حال فلا بد أن أذهب.

فقال إيفان أندريتش وهو يجذب طرف معطف زميله في حركة يائسة:

ـ يا سيدي العزيز! ما الذي تفكر فيه؟ وكيف يصير حالي أنا؟

ـ اصمت. وابقَ في مكانك. ومن المحتمل أن تبقى كذلك الليل كله ثم تخرج في الصباح بطريقة ما.

وقال الرجل العجوز، الذي ربما كان قد غفا لحظة:

ـ ما هذا؟ أحسب أنني أسمع شيئاً يجري في أعلى مرة أخرى. فقال إيفان أندريتش همساً:

ـ هل سمعت أيها الشاب؟ إنني ذاهب. سأخرج أيها الشاب.

ـ إذن فلن أخرج أنا. لا شيء يهمني. ولن أخشى شيئاً. ولكن هل تعلم ما ظني بك؟ إني أعتقد أنك زوج مخدوع.

ـ يا للسماء. أيمكن أن تعتقد ذلك؟ لماذا تحسبني زوجاً؟

إنني غير متزوج.

ـ غير متزوج؟ يا له من كلام فارغ.

ـ ربما كنت أنا نفسي عاشقاً.

ـ ما ألطفك من عاشق!

ـ يا سيدي العزيز! يا سيدي العزيز! سأقص عليك المسألة كلها، فاستمع لقصتي البائسة. إنها ليست... أنا غير متزوج، أنا أعزب مثلك. إنه صديقي زميل الطفولة. وقد حدثني أنه رجل تعيس وقال لي: «أنا أشرب كأساً مريرة. أنا أشك في زوجتي». فقلت له: «ولماذا تشك فيها؟»... ولكنك لا تصغي إليّ. أنصت! أنصت! قلت له: «إن الغيرة رذيلة! الغيرة داء مضحك!». فقال لي: «لا إنني رجل تعيس! إنني أشرب... أعني أنني أشك في زوجتي» فقلت له: «إنك صديقي، زميل طفولتي، وقد قطفنا معاً

زهور السعادة، وشربنا معاً كؤوس الهناء»، يا إلهي! إنني لا أكاد أعي ما أقول. إنك تضحك باستمرار أيها الشاب وستقودني إلى جنون!

ـ ولكنك مجنون فعلاً...

ـ كنت أعلم أنك ستقول هذا... اضحك. اضحك أيها الشاب. لقد كنت أفعل مثلك يوماً ما. آه! سوف أصاب بالتهاب في المخ!

وقال الرجل العجوز:

ـ ما هذا يا حبيبتي؟ أظن أني سمعت شخصاً يعطس. هل أنت التي عطست يا حبيبتي؟

ـ يا إلهي!

وسمع صوت عطسة أخرى من تحت السرير فقالت الزوجة مذعورة:

ـ لا بد أنهم يحدثون حركة في الأعلى.

ـ لا شك أن هناك حركة يا حبيبتي. أليس الأفضل أن أرسل أحداً يستخبر؟

ـ بربك ما الذي سيقودك إليه تفكيرك؟

ـ حسناً لن أفعل. كم أنت غاضبة الليلة. إنك لا تحبينني أبداً يا ليزا.

ـ بل أحبك. ولكن أستحلفك بالله أن تذهب إلى سريرك.

ـ حسناً. حسناً. سأذهب.

ـ لا. لا لا تذهب. أو. لا. الأفضل أن تذهب.

ـ ماذا بك؟ في لحظة تقولين لي اذهب وفي اللحظة التالية تقولين لا تذهب (سعال) لقد حان وقت النوم (سعال).

فقال إيفان أندريتش:

ـ يا لله! إن المكان يفوح برائحة الجرذان. وليس في الوسع أن أمنع العطاس. أخرج لي المنديل من جيبي فإني لا أستطيع حراكاً... يا إلهي! لماذا ينزل بي كل هذا العقاب.

ـ هاك منديلك! تريد أن تعرف لماذا ينزل بك هذا العقاب؟ لأنك تندفع كالمجنون. وتدخل بيوت الناس فتحدث لهم اضطراباً.

ـ أيها الشاب. إنك لا تستطيع أن تلقي عليّ محاضرة في الأدب، فأنا أكثر منك أدباً... ولم أحدث اضطراباً لأحد.

ـ بل أحدثت اضطراباً، فأخفت سيدة صغيرة وأفزعتها حتى لم تعد تدري ماذا تفعل، وربما أصابها المرض نتيجة لذلك الاضطراب. ثم إنك تزعج رجلاً هرماً يشكو علة ويحتاج إلى الراحة قبل كل شيء. كل ذلك لماذا؟ لأنك تتخيل أوهاماً فتروح تجري إلى كل مكان! أترى في أيّ موقف أنت الآن؟ أتعلم أنه ربما انتهى الأمر إلى مأساة؟ وأنه ربما جنّ الرجل العجوز المغرم بزوجته إذا رآك تخرج من تحت السرير؟ ولكن لا! إنك أعجز من أن تسبب مأساة. وأتوقع ـ حين تزحف خارجاً من تحت السرير ـ أن يضحك منك كل من رآك!

ـ لا بد أنك تحمل طابع الفجور أيها الشاب!

ـ أوه. أنت تتحدث عن الأخلاق؟! كيف تعلم سبب وجودي هنا؟ إن هذا حدث نتيجة غلطة. فقد أخطأت الطابق الذي أريده. ويعلم لله لماذا سمحوا لي بالدخول هنا. وقد اختبأت تحت السرير حين سمعت خطواتك البليدة ورأيت السيدة في حال ذعر. ثم إن الظلام كان سائداً.

ولكن لماذا أبرر موقفي أمامك؟ إنك رجل مضحك... أتدري لماذا لا أخرج الآن؟ ربما ظننت أني خائف من الخروج؟ لا يا سيدي. لقد بقيت هنا شفقة بك. فأيّ شيء يحسبونك لو لم أكن هنا؟ ستقف أمامهم «كالنطع» لا تدري ماذا تفعل...

ـ ولماذا تشبهني بهذا الشيء؟ ألا تستطيع أن تجد شيئاً آخر تشبهني به أيها الشاب؟... يا لله! لماذا لا يكف هذا الكلب عن النباح؟!

ـ صه! إنه ينبح حقاً. ذلك أنك لا تكف عن اللغط. لقد أيقظته وستحدث الآن مشاكل جديدة.

كان كلب السيدة ـ الذي ظل نائماً تلك المدة على وسادة في ركن الغرفة ـ قد استيقظ فجأة وشمّ رائحة الأغراب واندفع تحت السرير ينبح نباحاً عالياً: فصاحت به السيدة:

ـ أميشكا! أميشكا! تعال هنا. هنا. هنا.

ولكن الكلب لم يصغ إليها واندفع نحو إيفان أندريتش.

وقال الرجل العجوز وقد صحا من غفوة:

ـ ما الذي يجعل أميشكا ينبح هكذا؟ لا بد أن هناك جرذاناً تحت السرير. أو أنه القط.

وقال الشاب همساً:

ـ استقر في مكانك ولا تنقلب هكذا عسى أن يسكت الكلب ويذهب.

ـ يا سيدي اترك يدي يا سيدي. إنه سيعض أنفي. أتريدني أن أفقد أنفي.

وتلت ذلك معركة خلص فيها الرجل يديه. ونبح الكلب دفعات متوالية. ثم أخرج صرخة من فمه وسكت فجأة.

فصرخت السيدة. آي! وقال الشاب ساخطاً:

ـ أيها الوحش! ماذا تصنع؟ لقد أضعتنا جميعاً. لماذا تمسك به هكذا؟ يا لله! إنه يخنقه! اتركه يا وحش! إنك لا تعرف شيئاً عن قلوب النساء! ستفضحنا هي إذا خنقت الكلب.

ولكن إيفان لم يكن في تلك اللحظة يعي شيئاً، فقد أمسك بالكلب وضغط على رقبته في شبه جنون ليقي نفسه من شره فصرخ الكلب ثم أسلم أنفاسه. فصاحت السيدة:

ـ أميشكا! أميشكا! يا إلهي. ما الذي يصنعون بأميشكا؟ أميشكا! تعال هنا. آه من الوحوش! الهمج! إني أشعر بدوار.

فصاح الرجل العجوز وهو يقفز من مقعده المريح:

ـ ماذا؟ ماذا؟ ماذا بك يا عزيزتي؟ أميشكا! تعال يا أميشكا! أميشكا! أميشكا! وراح يفرقع بأصابعه ويمصمص بشفتيه وهو ينادي:

ـ أميشكا! هنا هنا. لا يمكن أن يكون القط قد أكله. القط في حاجة إلى (علقة) يا حبيبتي. إنه لم يضرب منذ شهر كامل... هذا الوغد. ما رأيك يا عزيزتي؟ ولكن ماذا أصابك بالله يا حبيبتي؟ ما أشد امتقاع وجهك! الخدم. الخدم!

ودار الرجل في الغرفة فصاحت السيدة وهي ترتمي على مقعد:

ـ أوغاد! وحوش!

ـ من؟ من؟ من؟

ـ يوجد رجال أغراب هنا تحت السرير! يا إلهي! ماذا صنعوا بك يا أميشكا!

ـ يا للسماء! أيّ رجال؟ أميشكا... الخدم... أقبلوا أيها الخدم! من هنا؟ من هنا؟ ثم جذب شمعة وانحنى تحت السرير فانتهز الشاب الفرصة وزحف خارجاً من تحت السرير بينما كان الرجل يبحث عن الأغراب من الناحية الأخرى.

فصاحت السيدة وهي تنظر إليه في دهشة:

ـ يا لله! من أنت! لقد حسبت...

ـ هذا الوحش الذي ما زال تحت السرير، هو الذي قتل أميشكا!

واختفى الشاب من الغرفة. وصاح الزوج وهو يمسك إيفان أندريتش من رجليه:

ـ آه يوجد شخص هنا. هذا حذاء رجل.

وعادت السيدة تقول:

ـ جريمة قتل. قتل! آه يا أميشكا!

وراح الرجل يدق بقدميه معاً على البساط وهو يقول:

ـ اخرج. اخرج. اخرج من هنا. من أنت؟ أخبرني من أنت! يا له من شخص عجيب!

فصاح إيفان أندريتش وهو يزحف من تحت السرير:

ـ أستحلفك بالله! أستحلفك بالله يا صاحب السعادة، ألّا تنادي الخدم! لا تنادِ أحداً يا صاحب السعادة فليس لذلك ضرورة. ولا يمكن أن تخرجني بالركل والضرب! فلست من ذلك النوع من الناس. إن حالتي تختلف عنهم. لقد نشأ كل ذلك من غلطة يا صاحب السعادة! سأشرح لك كل شيء في الحال يا صاحب السعادة! كل هذا من زوجتي. أعني ليست زوجتي. بل زوجة رجل آخر... أنا غير متزوج. أنا فقط... إنه صديقي زميل الطفولة!

فصاح الرجل العجوز وهو يضرب برجليه:

ـ زميل طفولة ماذا؟ إنك لص جئت تسرق. أنت لست زميل طفولته!

ـ لا. لست لصّاً يا صاحب السعادة. أؤكد لك أنني زميل طفولة! لقد أتيت إلى هذا المكان خطأ. انظر إليّ فقط. انظر إليّ وستجد من العلامات ما يمنع أن أكون لصّاً يا صاحب السعادة.

ثم شبك يديه على صدره وتوجّه إلى السيدة مستعطفاً:

ـ إنني أنا الذي قتلت أميشكا. ولكن هذه لم تكن غلطتي يا سيدتي. إنها غلطة زوجتي. إنني رجل شقيّ. إنني أشرب الكأس المر...

فصاح الرجل العجوز وهو ينتفض من الاضطراب وإن كان قد رأى من العلامات ما يمنع أن يكون إيفان أندزيتش لصّاً:

ـ ولكن ما شأني أنا إذا كنت تشرب الكأس المر؟ كيف أتيت إلى هنا؟ لقد دخلت كاللصوص.

ـ لست لصّاً يا صاحب السعادة. لقد دخلت هنا خطأ. وكل ذلك بسبب

الغيرة. سأحدثك بكل شيء يا صاحب السعادة سأعترف لك بصراحة كما لو كنت أعترف لوالدي. ففي سنّك المهيبة أستطيع أن أعتبرك والداً.

ـ ما الذي تعني بسنّي المهيبة؟

ـ ربما أكون قد أسأت إليك يا صاحب السعادة. طبعاً. سيدة صغيرة كهذه... وسنّك... منظر جميل يا صاحب السعادة. إنه لمن دواعي السرور حقاً هذا الاتحاد... في زهرة العمر... ولكن لا تنادِ الخدم. أستحلفك بالله ألّا تنادي الخدم... لن يصنع الخدم شيئاً إلّا أن يضحكوا. أنا أعرفهم جيداً. لست أعني أن معارفي من الخدم. فإن لي أنا خدماً يا صاحب السعادة... وهم دائماً يضحكون... أولئك الحمير! يا صاحب السمو؟ أظن أنني لست مخطئاً... وأنني أحادث أميراً...

ـ لا لست أميراً يا سيدي. إنني رجل مستقل... من فضلك لا تتملقني بقولك يا صاحب السمو. كيف أتيت إلى هنا يا سيدي؟ كيف أتيت إلى هنا؟

ـ يا صاحب السمو أعني يا صاحب السعادة... معذرة. لقد ظننت أنك صاحب سمو فإنك شديد الشبه بالأمير كوزونكوهوف الذي تشرفت بمقابلته عند صديقي المسيو يوسيريف. فأنا كما ترى على معرفة بالأمراء إذن. لقد التقيت بأمراء في منازل أصدقائي فلا تستطيع أن تنظر إليّ تلك النظرة. لست لصّاً يا صاحب السعادة. لا تنادِ الخدم فأيّ فائدة في ذلك؟

فصرخت السيدة: ولكن كيف أتيت إلى هنا؟ من أنت؟

فقال الزوج: نعم. من أنت؟ انظري يا حبيبتي. لقد كنت أظن أنه القط يعطس تحت السرير، ولكنه كان هذا الرجل العجيب. يا متشرد! من أنت؟ خبرني!

ـ لا أستطيع أن أتكلم يا صاحب السعادة حتى تنتهوا أنتم من كلامكم. وإني لأستعذب نكتكم الظريفة! أما حكايتي فهي حكاية غريبة يا صاحب السعادة! سأقص عليك كل شيء بدون أيّ لغط. أعني لا تنادِ الخدم يا صاحب السعادة! عاملني معاملة لطيفة...

ـ ولكن كيف... كيف أتيت إلى هنا؟

ـ تحت ستار الليل يا صاحب السعادة. أرجو مغفرتك. سامحني يا صاحب السعادة! إنني بخضوع أطلب مغفرتك. كل ما في الأمر أنني زوج مخدوع... ولا شيء غير هذا. لا تظن يا صاحب السعادة أنني عشيق. إن زوجتك هي الفضيلة بعينها وإنها لبريئة طاهرة!

ـ ماذا؟ ماذا؟ هل تجرأت إلى هذا الحد؟ هل ذهب عقلك من رأسك؟ كيف تجرؤ على التحدث عن زوجتي؟

فصاحت السيدة مولولة وقد انهمرت الدموع من عينيها:

ـ إنه وغد سافل. إنه قاتل. قتل أميشكا... ثم يتجرأ...

فصاح إيفان أندريتش مرتبكاً:

ـ يا صاحب السعادة! لقد تحدثت بحماقة. هذا هو كل ما في الأمر. اعتبرني كأنما ذهب عقلي من رأسي. وأؤكد لك أنك بذلك تقدم لي خير صنيع. وددت لو أقدم لك يدي ولكني لن أخاطر بذلك. لم أكن بمفردي... أعني أنه لا يمكن أن تظنني عشيقاً... يا إلهي ها أنذا أتعثر مرة أخرى فأقع في المشكل ذاته. لا تغضب يا صاحب السعادة...

ثم وجه كلامه إلى السيدة:

ـ إنك سيدة وتفهمين معنى الحب... هو إحساس دقيق... ولكن ما ذلك الذي أقول؟ لقد عدت إلى الكلام الفارغ مرة أخرى. أريد أن أقول إنني رجل هرم. أعني أنني رجل متوسط العمر لا هرم، وأنني لا يمكن أن أكون لك عشيقاً...

إن العشيق لا بد أن يكون مثل رتشاردسون أو لفليس. إنني أتكلم كلاماً فارغاً، ولكنك ترى يا صاحب السعادة أنني رجل متعلم وأنني أعرف شيئاً عن الأدب. إنك تضحك يا صاحب السعادة. أنا مسرور، مسرور لأنني أطلقت مرحك يا صاحب السعادة، ما أشد سروري باستثارة مرحك!

فصاحت السيدة وقد انفجرت ضاحكة:

ـ يا إلهي! يا له من رجل غريب الأطوار!

فقال الرجل العجوز مسروراً بضحك زوجته:

ـ نعم إنه غريب الأطوار، وهو واقع في ورطة عظيمة، لا يمكن أن يكون لصاً يا حبيبتي، ولكن كيف جاء إلى هنا؟

ـ إنها مسألة غريبة حقاً يا صاحب السعادة، إنها تشبه أن تكون قصة! رجل تحت السرير في سكون الليل وفي مدينة عظيمة، غريب!... عجيب! ولكني سأقص عليكم كل شيء، وسأشتري لكم كلباً صغيراً يا صاحب السعادة... كلب مدهش بفراء طويلة وأرجل قصيرة لا يستطيع أن يسير أكثر من خطوة أو خطوتين، ويجري قليلاً ويتعثر في فروته، فيقع، ولا يأكل إلّا السكر... سأحضر لكم واحداً من هذا الصنف دون شك...

فقالت السيدة وهي لا تتمالك نفسها من شدة الضحك:

ـ يا سس الله! سأجنّ من شدة الضحك، ما أعجبه من رجل!

ـ نعم. نعم. هاهاها! (سعال) إنه غريب الأطوار! (سعال).

ـ يا صاحب السعادة! إنني الآن في غاية السرور! أودّ أن أقدم يدي إليك، ولكني لا أجرؤ على ذلك يا صاحب السعادة. إني أشعر أنني كنت مخطئاً ولكني الآن أفتح عيني. أنا متأكد أن زوجتي طاهرة بريئة، ولقد كنت مخطئاً حين شككت فيها!

فصاحت السيدة وعيناها تدمعان من شدة الضحك:

ـ زوجته؟!

ـ هو متزوج؟ مستحيل! ما كنت لأعتقد ذلك أبداً!

ـ يا صاحب السعادة... زوجتي... الغلطة غلطتها هي.

أعني غلطتي أنا. لقد شككت في سلوكها. وقد علمت أن مؤامرة غرامية تعد هنا. أعني فوق... ووقعت في يدي رسالة ففسرتها على نحو خاص، وأخطأت معرفة الطابق... ودخلت تحت السرير...

ـ هى هى هى!

ـ ها ها ها!

ثم راح إيفان أندريتش يضحك معهما آخر الأمر وهو يقول:

ـ ما أسعدني! ما أجمل أن نكون جميعاً بهذه السعادة وهذا الانسجام وزوجتي بريئة كل البراءة. لا بد أن تكون بريئة يا صاحب السعادة!

فعاد الرجل العجوز يضحك ويسعل معاً. ثم قال أخيراً وقد تغلب على نوبة الضحك:

ـ هل تعلمين يا حبيبتي من هي؟ لا بد أن تكون هي تلك السيدة الجميلة التي تبث العيون والأرصاد... أراهن على أنها هي زوجته!

ـ لا يا صاحب السعادة! أنا واثق من أنها ليست هي. أنا واثق إلى أبعد الحدود!

فقالت السيدة وقد كفّت أخيراً عن الضحك:

ـ ولكنك تضيع الوقت. أسرع إلى أعلى. فربما وجدتهم هناك.

ـ سأذهب بطبيعة الحال. ولكني لن أجد أحداً. إنها ليست هي. أنا واثق من ذلك مقدماً. إنها الآن في المنزل والغلطة كلها غلطتي أنا! هي الغيرة ولا شيء غير هذا. أتحسب أنني سأجدهم هناك يا صاحب السعادة؟

ـ ها ها ها!

ـ هى هى هى! (سعال).

وقالت له السيدة:

ـ اذهب! لا بد أن تذهب! وحين تنزل تعالَ وقصَّ علينا ما رأيته. أو الأفضل أن تمر صباح الغد. ولتحضر معك زوجتك أيضاً. فإني أحب أن أتعرف إليها.

ـ وداعاً يا صاحب السعادة! سأحضرها معي دون شك وسأكون سعيداً جداً لتعرفها إليكم، أنا في غاية السرور لأن المسألة انتهت على هذا النحو البديع!

وانسحب إيفان أندريتش بعد أن انحنى انحناءة عظيمة. وخرج إلى الطريق. وظل واقفاً هناك مدة طويلة في هيئة من يتوقع أن تصيبه في

اللحظة التالية نوبة شديدة. ونزع قبعته ومسح العرق البارد المتصبب من جبينه وفرك عينيه وراح يفكر لحظة ثم وجه خطواته نحو المنزل.

وما كان أشد دهشته حين علم أن جلافيرا بتروفنا قد عادت من المسرح منذ مدة طويلة جداً، وأنها أصيبت بألم في أسنانها واستدعت طبيباً وأنها الآن مستلقية في سريرها في انتظار إيفان أندريتش.

وضرب إيفان أندريتش جبهته بيده ثم طلب من الخادم أن تساعده في غسل وجهه ويديه وتنظيف ملابسه بالفرشاة. وأخيراً تجرأ فدخل إلى غرفة زوجته التي بادرته بقولها:

ـ أين كنت؟ في أيّ مكان تقضي وقتك؟ انظر إلى منظرك! أين كنت تائهاً كل تلك المدة؟ زوجتك تكاد تموت هنا يا سيدي، ثم نبحث عنك في كل مكان في المدينة! أين كنت؟ لعلك كنت تتعقب خطواتي محاولاً أن تقع في طريق موعد حددته أنا. لا أدري مع من. يا للعار يا سيدي. إنك زوج! وعمّا قليل ستجد الناس يتغامزون عليك في الطريق.

ولكنه أصيب باضطراب عنيف اضطره أن يتحسس منديله في جيبه وأن يقطع الحديث الذي بدأه لأنه لم يجد كلاماً يقوله ولا أفكاراً ولا شجاعة... وما كان أشد دهشته وفزعه واضطرابه حين وقع من جيبه مع المنديل جثة أميشكا! ذلك أن إيفان أندريتش كان قد دسّ الجثة في جيبه حين اضطر إلى الخروج من تحت السرير محاولاً إخفاء معالم الجريمة، ولكنه نسي الجثة في جيبه.

فصاحت به زوجته: ما هذا؟ كلب ميت كريه! يا لله! من أين أتيت به؟ ما الذي كنت تصنع؟... أين كنت؟ أخبرني في الحال أين كنت؟

فأجاب وهو أقرب للموت منه للحياة. يا حبيبتي... يا حبيبتي... ولم يزد!!.

لإرضاء زوجته

لتوماس هاردي

(1)

كان الفضاء في داخل كنيسة سان جيمس بمدينة هافنبول، يظلم رويداً رويداً بسبب تجمع السحب الشتوية في المساء، وكان اليوم الأحد والصلاة قد انتهت لتوّها، وتنفّس الحاضرون الصعداء وأخذوا ينهضون من ركعتهم ليفارقوا المكان.

وساد السكون العميق لحظة، حتى كانت همهمة البحر في الميناء تسمع من بعيد، ثم قطع الصمت صوت أقدام الساعي وهو يتجه لفتح الباب الغربي المعد للخروج. ولكنه ما كاد يصل إلى الباب حتى رفع المزلاج من الخارج ودخل رجل يرتدي ملابس بحار، وأغلق الباب وراءه بخفة ثم اتجه إلى القسيس الذي كان يصلي صلاته الخاصة بعد أن انتهى من الصلاة للناس، فنهض وصعّد طرفه إلى الرجل الدخيل.

فقال البحار بصوت مسموع: «أرجو المعذرة يا سيدي. لقد أتيت لأؤدي الشكر لله على نجاتي من الغرق، وقد أفهمت أن ذلك خير. هذا إذا لم يكن لديك اعتراض».

فقال القسيس: «ليس لدي أيّ اعتراض. ولكن مثل هذه الأشياء يجب أن تذكر قبل الصلاة حتى يجيء الشكر في وقته المعد له، على أيّ حال نستطيع أن نقرأ من النص الذي يستعمل في العواصف البحرية».

فقال البحار: «كما ترى... لست أدقق في الأمر» ثم ركع البحار وأخذ يردد كلمات القسيس كلمة كلمة، وركع الناس بحركة آلية. ولكن بصرهم ظل معلقاً بالبحار المستغرق بالدعاء. فلما انتهت صلاته نهض ونهض الناس معه وخرجوا جميعاً من الكنيسة. وما إن انعكس نور المساء الضئيل على وجهه حتى عرف فيه السكان القدماء (شادراك جوليف) البحار الشاب الذي تغيب عن هافنبول بضع سنوات. وهو أحد أبناء المدينة، مات أبواه وهو لم يزل طفلاً، فاشتغل بالملاحة في خط نيوفوندلند.

أخذ الشاب يتحدث إلى سكان المدينة في أثناء سيره معهم، فأخبرهم أنه في خلال مدة غيابه قد أصبح قبطاناً ومالكاً لسفينة صغيرة أنقذتها العناية من الغرق الذي كان قاب قوسين. ثم سار الفتى نحو فتاتين كانتا قد سبقتاه إلى الخروج من فناء الكنيسة. وكانتا قد شاهدتاه وهو يدخل ويصلي فاسترعى انتباههما بشدة، وجعلتا الآن تتناقشان بشأنه. كانت إحداهما لطيفة ضئيلة الحجم بينما كانت الأخرى ضخمة طويلة. وجعل القبطان ينقل بصره فيهما، من خصلات الشعر المتهدلة على أكتافهما إلى كعوب أقدامهما، ثم سأل جاره همساً: «من تراهما تكونان؟».

فقال البحار: الصغيرة هي إميلي هانج والطويلة جوانا فيارد.

أوه. إنني أذكرهما الآن بلا شك.

ثم تقدم نحوهما يسترق إليهما النظر، وقال وهو يحدج إحداهما بنظرة من عينيه المشعتين: إميلي! ألا تعرفينني؟

فقالت إميلي باستحياء: أظن أنني أعرفك يا مستر جوليف.

وصوبت إليه الأخرى نظرة من خلال عينيها السوداوين، فاستطرد يقول:

ـ لست أذكر تماماً وجه الآنسة جوانا، ولكنني أعرف طيب أصلها وكرم محتدها.

ثم ساروا معاً يتحدثون وجوليف يقص عليهم أخبار مخاطرته الأخيرة حتى وصلوا إلى «سلوب لين» حيث تسكن إميلي، فغادرتهما ببسمة وإيماءة من رأسها. وسرعان ما ترك البحار جوانا أيضاً. فلما وجد نفسه فريداً بغير غاية ولا ارتباط بأحد عاد إلى منزل إميلي حيث كانت تسكن مع أبيها الذي يشتغل خبيراً مثمناً، وكانت هي تشرف على محل لبيع أدوات الكتابة، مساعدة لأبيها.

فلما دخل وجد الفتاة وأباها على أهبة تناول الشاي فقال:

ـ أوه، لم أكن أعرف أن هذا وقت الشاي. أجل، سأتناول قدحاً بمزيد من السرور.

وبقي معهما طويلاً بعد الشاي يتحدث عن قصصه ومخاطراته في البحر، وتجمع كثير من الجيران ليستمعوا فأذن لهم. وقد أحست إميلي إحساساً خفياً بأنها لم تعد تملك نفسها إزاء البحار. وما هو إلا أسبوع أو أسبوعان حتى بدأ بينهما تفاهم عاطفي لطيف...

* * *

وبينما هو يسير ذات ليلة مقمرة بعد شهر من مقامه على البر في الطريق

المؤدي إلى خارج المدينة رأى أمامه شبحاً ظنه إميلي في بادىء الأمر، فلما اقترب وجد أنها جوانا فبادر فحياها تحية لطيفة وسار بجانبها، فقالت:

ـ امضِ في طريقك لئلا تغار إميلي!

ولم يبدُ عليه أنه وافق على هذا الاقتراح فقد بقي بجانبها! ولا يذكر شادراك جيداً ما قالاه وما فعلاه تلك الليلة. ولكنه أحس أن جوانا كانت تحاول أن «تفطمه» من حب غريمتها اللطيفة.

ومنذ ذلك الأسبوع صار شادراك لا ينقطع عن مصاحبة جوانا بينما قلَّت رؤيته لإميلي، وتحدث الناس في المدينة بأن شادراك سيتزوج جوانا وأنه سيترك إميلي تذوب حسرات.

فلما وصلت هذه الإشاعة إلى جوانا، ارتدت ملابسها ذات صباح وخرجت إلى مسكن إميلي إذ كان قد وصل إلى سمعها خبر الحزن العميق الذي استولى على صديقتها، وأخذ ضميرها يؤنّبها على سلبها فتاها.

ولم تكن جوانا راضية كل الرضا عن البحار، كانت تحب اهتمامه بها، وكانت تتطلع إلى الزواج، ولكنها لم تحس قط بالحب العميق له، فقد كانت فتاة طموحاً ولم تكن مكانة البحار الاجتماعية في مرتبة سكانتها. وقد قررت في داخلية نفسها من زمن ألا تعارض معارضة قوية في رده إلى إميلي إذا رأت أن صديقتها تتألم لفقده ألماً شديداً. وكتبت ـ لهذا الغرض ـ خطاباً لشادراك كانت تحمله معها لترسله إليه إذا لاحظت على إميلي أنها تتعذب حقّاً.

هبطت جوانا إلى الدكان ـ الذي تحت مستوى الطوار ـ فلم تجد أحداً

ولا إميلي نفسها، فانتظرت، وما لبثت أن رأت شخصاً يحدق في واجهة الدكان ويتظاهر بفحص الأوراق المعروضة فيها، كان هذا هو شادراك وكان في الحقيقة ينظر ليرى ما إذا كانت إميلي في الداخل.

وقد كرهت جوانا أن تجده في مكان ذي صلة بإميلي، وأرادت أن تستطلع شأن مجيئه، فاختفت وراء الباب الذي يفصل بين الردهة وغرفة الجلوس بحيث تسمع وترى دون أن يراها أحد.

ودخل جوليف. ورأت جوانا من مكانها الخفي أنه قد استاء لتغيب إميلي وكاد يخرج، لولا أنه أبصرها عائدة من رحلتها القصيرة، وما إن رأته حتى بدا عليها كأنما تريد أن تعود للخروج، ولكنه قال لها:

ـ لا تهربي يا إميلي. ماذا يخيفكِ مني؟

ـ لست خائفة يا قبطان ولكني رأيتك فجأة فجعلتني رؤيتك أثب من مكاني.

قالت ذلك بصوت يدل على أن قلبها كان أشد وثوباً من بقية جسمها.

قال: لقد مررت عليك في طريقي...

فقالت وهي تسرع وراء الخزانة: لتشتري ورقاً؟

ـ لا. لا يا إميلي. لماذا تذهبين بعيداً عني؟ لماذا لا تبقين معي؟ يبدو عليكِ أنك تكرهينني.

ـ لست أكرهك، وكيف أستطيع ذلك؟

ـ إذن فتعالي نتحدث...

فأطاعت إميلي إشارته وجاءت إلى جانبه.

ـ أنت عزيزتي...

ـ لا تقل هذا، لأن هذه الكلمات ملك لإنسانة أخرى.

ـ آه... إنني أعلم ما تقصدين... ولكن أقسم لك يا إميلي إنني لم أدرك أنكِ تهتمين بي إلا هذا الصباح، ولو علمت ذلك من قبل لكان لي شأن غير ما فعلت، إنني أحس نحو جوانا أجمل الأحاسيس، ولكني أعلم أنها كانت في بادىء الأمر لا تهتم بي إلا اهتمام الصداقة، أما الآن فقد وجدت الفتاة التي كان يجب أن أطلب يدها لتكون زوجة لي، وأنتِ تعلمين يا إميلي أنه حين يعود الرجل من البحر بعد رحلة طويلة فإنه يكون كالخفاش قليل التمييز، فلا يستطيع أن يميز بين النساء، كلهن أمامه سواء، مخلوقات جميلة، فيأخذ أول من تقع في سبيله دون أن يفكر فيما إذا كانت تحبه أم لا، ولا في أنه ربما أحب بعد قليل أخرى أفضل منها، وقد شعرت بالميل إليكِ منذ أول لحظة ولكنكِ كنت حيية جداً فحسبت أنك لا تريدين أن أضايقكِ فذهبتُ إلى جوانا...

ـ لا تقل هذا، بربك لا تقله... إنك في طريقك إلى الزواج من جوانا الشهر القادم، ومن الخطأ أن... أن...

فصاح وهو يطوّقها بذراعيه قبل أن تنتبه له: إميلي... عزيزتي...

(امتقع وجه جوانا وراء الستار وحاولت أن تحوّل عينيها بعيداً ولكنها لم تستطع).

ـ إنها أنت التي أحبها كما ينبغي أن يحب الرجل الفتاة التي ستصبح له زوجاً، وقد علمت من حديث جوانا لي أنها عازمة على إطلاق سراحي! إنها تريد أن تتزوج ممن هو أعلى مني، ولم توافق على طلبي إلّا شفقة بي،

إن فتاة طويلة جميلة مثلها لن ترضى ببحار مثلي زوجاً لها، إنكِ أنسب الناس إليّ.

وضمها إليه وقبّلها مرة ومرة وهي ترتعش بين ذراعيه... وقالت:

ـ أنت واثق من أن جوانا ستتركك؟ أأنت واثق؟

ـ أعلم أنها لا تحب أن تشقيني وسوف تطلقني...

ـ أرجو ذلك... أرجو... لا تطل مكثك هنا يا جوليف...

ولكنه تلكأ حتى دخل أحد الزبائن فاضطر للخروج، واحتالت جوانا حتى خرجت إلى الطريق بدون أن تراها إميلي، وقد طغت الغيرة والحسد على قلبها، وقلب منظر الغزل الذي رأته كل مشروعاتها السابقة، فما إن وصلت إلى المنزل حتى أحرقت الخطاب وقالت لأمها أن تخبر جوليف إذا أتى لزيارتها أنها مريضة لا تستطيع أن تراه...

ولكن شادراك لم يمرّ عليها، بل أرسل إليها رسالة يعبّر فيها بلغة بسيطة عن أحاسيسه ويطلب أن تسمح له بأن يستغل ما كانت تصرح له به أحياناً من أن عاطفتها نحوه ليست أكثر من صداقة، فتقبل إلغاء الخطبة...

وجلس في مسكنه المطل على الميناء ينتظر، وطال انتظاره ولكن الرد لم يصل، فلما ثقل عليه الانتظار لم يستطع أن يقاوم الرغبة الملحّة في زيارتها لكي يعلم حظه... وهناك علم من أمها أن طلبه هذا قد وضعهم في موقف غاية في الإيلام...

عند ذلك خشي شادراك أن يكون قد ارتكب خطيئة. فاعتذر إليها قائلاً: إنه كان يحسب أن جوانا لا تحفل به ولا ترضاه زوجاً، بل إنها ستسر

بتخلصها منه، أما وهي تريده فهو يعد نفسه مقيداً بكلمة ويحب أن تعتبر الرسالة كأن لم تكن...

وفي الصباح التالي تلقى رسالة شفوية من جوانا تطلب منه فيها أن يمرّ عليها في المساء ليصطحبها إلى المنزل حيث تكون في أحد المجتمعات. وبينما هما يسيران ويدها متأبطة ذراعه قالت له: «كل شيء بيننا كما كان والرسالة قد أرسلت خطأ، أليس كذلك يا شادراك؟».

قال: كل شيء كما كان إذا صممت على ذلك...

فهمست وقد تقلصت ملامحها وهي تفكر في إميلي: إنني راغبة في ذلك.

لقد كان شادراك رجلاً متديناً ذا ضمير، يحترم كلمته، وما هي إلا أيام حتى تم الزواج بعد أن اعتذر جوليف لإميلي بأقصى ما يستطيع من رقة عن غلطته في فهم عواطف جوانا على النحو الذي حدثها عنه من قبل...

(2)

بعد شهر من زواج جوانا ماتت أمها، واضطرت هي وزوجها أن يركزا انتباههما في المسائل العملية، ولما كانت جوانا قد فقدت أبويها فإنها لم تطق فكرة رجوع زوجها إلى البحر. واستقر رأيهما على أن يفتحا دكان بدال. ولم تكن لشادراك أي خبرة بهذا النوع من الحياة، وكانت معلومات جوانا كذلك ضئيلة ولكنهما كانا يأملان أن يتعلما بمرور الأيام.

وقد حصرا جهدهما كله في إدارة الدكان، واستمرا في عملهما سنوات متعاقبة دون نجاح كبير، وأنجبا في تلك المدة ولدين كانت أمهما تحبهما

لدرجة العبادة وتحيطهما بكل أشواقها وآمالها في المستقبل، ولو أنها لم تحس تجاه زوجها بالحب العميق في يوم من الأيام...

ولكن تجارتهما لم تثمر، وانطوت كل أحلامهما التي كانت تغذيها بخيالها، والتي كانت تصور لها ابنيها وقد تعلّما أحسن تعليم وشقّا طريقهما في الحياة بنجاح عظيم، انطوت تلك الأحلام في وجه الحقيقة، ولم تستطع أن تعلمهما إلّا أبسط أنواع التعليم، وإن كان قربهما من البحر قد زوّدهما بخبرة عظيمة في الشؤون البحرية.

ولم يكن في خارج محيط الزوجين شيء يثير انتباههما إلّا زوج إميلي، ففي مصادفة من تلك المصادفات الغريبة التي تكشف عن المنزوين داخل الأركان بينما تعبر بالبارزين فلا تحفل بهم، عثر على إميلي أحد التجار الأغنياء فشغف بها حباً، وكان أرمل يكبرها ببضع سنوات ولكنه ـ مع ذلك ـ كان ما يزال في ربيع العمر. وكانت إميلي قد أعلنت في بادىء الأمر أنها لا يمكن أن تتزوج أبداً، أبداً... ولكن مستر لستر ظل يثابر في هدوء حتى استطاع أن ينال رضا الفتاة الكارهة وأنجبا هما أيضاً طفلين، فلما كبرا وترعرعا قالت إميلي: إنها لم تكن تحسب أنها ستعيش حتى تستمتع بكل تلك السعادة!

وكان منزل التاجر الغني ـ وهو منزل فخم كبير ـ يقع تقريباً في مواجهة دكان جوليف، وكان مما يثير الألم الممض في نفس جوانا أن ترى المرأة التي اغتصبت هي مكانها ـ لمجرد الطمع ـ تنظر من مكانها الرفيع إلى الدكانة المتواضعة التي قسم لها أن تتولى شأنها، وقد تدهور حال التجارة حتى اضطرت جوانا أن تشتغل بنفسها في الدكان، وكان يوقظ حفيظتها ويكاد يقتلها قتلاً أن إميلي لستر وهي جالسة في غرفة جلوسها الوثيرة

المطلة على الشارع تستطيع أن تشاهد حركتها الصاعدة الهابطة وراء الخزانة إجابة لطلبات زبائن القرش ونصف القرش، الذين كان من واجبها أن ترحب بهم مسرورة وأن تتأدب معهم حين تلقاهم في الطريق، بينما تسير إميلي تتهادى في الطريق مع ولديها ومربيتهما وتتحدث إلى أعلى الناس وأرفعهم في المدينة...

كان هذا هو كل ما كسبته حين منعت جوليف ـ الذي لم تحبه إلّا حباً ضعيفاً ـ من أن يتوجّه بعواطفه وجهة أخرى.

وكان شادراك رجلاً أميناً طيب السريرة، وكان يخلص لجوانا عملاً وعاطفة، وكان الزمن قد قص جناح حبه لإميلي ووجّه كل عاطفته إلى والدة أبنائه، ولم تعد إميلي في حسه أكثر من صديقة، وكذلك كان شعورها نحوه، وربما كانت جوانا تحس بشيء من الرضا لو أنها وجدت موجباً للغيرة، ولكن هذا الهدوء المطلق الذي قابلت به إميلي وشادراك نتيجة تدبيرها هو الذي كان يثير سخطها وتبرمها.

ولم يكن شادراك مزوداً بما يحتاج إليه رجال الأعمال من ذكاء والتواء يقف به في وجه منافسيه الكثيرين. فإذا سأله أحد الزبائن: هل ينصحه بشراء تلك المادة التي تستعمل في الحلوى بدل البيض (والتي يكون أحد العملاء المثابرين قد ألحف عليه حتى قبلها) قال: إنك إذا لم تضع بيضاً في الحلوى فلن تجد طعمه فيها! وإذا سئل عن بنّه (اليمني الحقيقي) هل هو يمني حقاً؟ قال عابساً: كما هو مفهوم في المحال الصغيرة.

ولم يكن الغنى من هذا الطريق.

وفي يوم من أيام الصيف، حين كان المنزل الفخم المواجه للدكان

يعكس عليه حرارة الشمس، نظرت جوانا ـ وكانت هي وزوجها منفردين في الدكان ـ فرأت عربة زائر ثري تقف على باب إميلي ثم قالت بحسرة وأسى:

ـ الحق يا شادراك أنك لست رجل أعمال، ولم يكن توجيهك يؤهلك للاشتغال بالتجارة، ومن المستحيل على إنسان أن يكوِّن ثروة من عمل يقفز إليه قفزاً كما فعلت أنت...

ووافقها شادراك على ذلك كما كان يوافقها على كل شيء آخر. ثم قال في مرح وخفة: «وإن كان لا يهمني أن أكوّن ثروة... فأنا سعيد هكذا... ونستطيع أن نشق طريقنا بشكل ما».

فقالت بمرارة: نشق طريقنا... نعم... ولكن انظر إلى إميلي لستر كيف تعيش في بسطة من العيش، تلك التي كانت في فقر مدقع! وسيذهب ولداها إلى الكلية دون شك، وانظر إلى ولديك ـ وقد اضطرا للذهاب إلى تلك المدرسة الحقيرة!

فرجعت أفكاره إلى إميلي لحظة ثم قال ضاحكاً:

ـ إن أحداً لم يقدّم لإميلي خدمة كما قدمتِ لها أنت يا جوانا حين منعتها مني وأوقفت ما كان بيننا فأتحت لها أن تكون من حظ لستر».

فأثارها ذلك إلى ما يقرب من الجنون وقالت متوسلة في صوت حزين:

ـ بربك لا تتحدث عما مضى، ولكن فكر ـ من أجل ولديك ومن أجلي، إن لم يكن من أجل نفسك ـ بطريقة تؤدي إلى زيادة ثروتنا.

فقال وقد بدت عليه علائم الجد: أقول لك الحق: إنني أحسست دائماً أنني غير صالح لهذا العمل وإن كنت لم أشأ أن أقول ذلك أبداً... ويبدو

لي أني بحاجة إلى فضاء أوسع من هذا المكان المحدود، وأنا أستطيع أن أصل إلى الثروة كأيّ رجل آخر إذا جربت طريقتي الخاصة...

ـ بودي لو استطعت ذلك. ما هي طريقتك؟

ـ أن أعود إلى البحر.

وقد كان المفروض أن تكون هي أحرص الناس على احتجازه على البر لأنها تكره أن تعيش شبه أرملة كما يعيش زوجات البحارة. ولكن طموحها كان أشد أثراً في نفسها من غرائزها.

فقالت له:

ـ هل تظن النجاح حقاً في ذلك الطريق؟

ـ أنا واثق أن النجاح لن يأتي من طريق آخر.

ـ وهل أنت راغب في الذهاب يا شادراك؟

ـ لن أذهب حباً في البحر ذاته، فليس في البحر من المتعة مثل ما أستطيع أن أجده هنا في منزلي. وأقول لك بصراحة إنه ليس بي ميل إلى الماء الملح ولم يكن بي قط هذا الميل ولكن إذا كانت المسألة مسألة ثروة لك ولولديك فهذا شأن آخر. وتلك هي الطريقة الوحيدة أمام رجل ولد وتربى مثلي بحاراً.

ـ وهل يطول الأمد لتحقيق تلك الثروة؟

ـ هذا أمر يتوقف على الظروف. وربما لم يطل.

وفي الصباح التالي أخرج شادراك من صوان الملابس، سترة البحارة التي كان يلبسها في الشهر الأول من عودته إلى البر، فنظفها من العث

وكواها ونزل بها إلى الساحل. وكانت ما تزال توجد بعض الأعمال في خط نيوفوندلند التجاري وإن كانت أقل من ذي قبل.

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى اشترك شادراك في ملكية سفينة عيّن لها قبطاناً، وأبحرت السفن في الربيع إلى نيوفوندلند. وبقيت جوانا مع ولديها اللذين اشتد ساعدهما، وصارا يشتغلان أحياناً في أعمال الشاطىء المختلفة.

وقالت أمهما المولهة بهما: لا عليهما من العمل قليلاً. فإنما الحاجة هي التي تدفعنا الآن لذلك. أما حين يعود شادراك ـ سيكونان في السابعة عشرة والثامنة عشرة من عمريهما ـ فسيتركان الميناء ويتولّى تعليمهما مدرس خاص ثم يستطيعان بثروتهما أن يدخلا في عداد الطبقة الراقية كولدي إميلي اللذين تعلّما الجبر واللغة اللاتينية!

واقترب موعد رجوع شادراك ثم حل... ولم يظهر بعد. ولكن جوانا كانت واثقة من أنه لا يوجد ما يدعو إلى القلق. إذ كانت السفن في ذلك الوقت غير مضبوطة المواعيد. وكانت ثقتها على حق، ففي مساء أحد الأيام ـ بعد شهر من الموعد المضروب ـ أعلن خبر عودة السفينة. وما لبثت أن سمعت وقع أقدام البحار في الممر الخارجي ثم دخل شادراك. وكانت جوانا بمفردها في المنزل، ثم كان الولدان قد ذهبا ليستقبلا والدهما في الميناء ولكنهما لم يلتقيا به هناك.

وبعد أن مرّت اللحظة العاطفية، لحظة الشعور بعودة الوحدة والامتزاج بين الزوجين، شرح لها جوليف سبب التأخير بأنهم قاموا بعمل من أعمال المضاربة أدى إلى نتائج طيبة. ثم قال:

ـ لقد كان في نيتي أن أرضيك وأظنك ستعترفين بأني قد فعلت!

وأخرج كيس نقود ضخماً مكتنزاً وفتحه ونفضه في حجرها، وكانت جالسة بجانب المدفأة على مقعد منخفض، فنزلت كمية ضخمة من الجنيهات الذهبية الرنانة، أثقلت حجرها حتى نزل إلى الأرض.

وقال شادراك ودلائل الرضا بادية على قسمات وجهه:

ـ انظري! لقد أخبرتك يا عزيزتي أني قادر على ذلك. فهلا ترين أني وفيت بوعدي؟

ولكن وجهها بعد المفاجأة الأولى وبعد فرحة الشعور بالامتلاك لم يسترد إشراقه الأول. قالت إن كمية من الذهب كبيرة حقاً... و... أو هذا كل ما هناك؟

ـ كل ما هناك: هل تعلمين يا عزيزتي جوانا أنك تستطيعين أن تعدي في هذه الكومة إلى ثلاثمئة جنيه؟ إنها ثروة!.

ـ نعم. نعم هي ثروة حين تقدرها وأنت في البحر. أما هنا على البر... ولكنها تركت التقديرات المالية جانباً، إذ سرعان ما عاد الولدان من الشاطىء.

وفي يوم الأحد التالي ذهب شادراك إلى الكنيسة لتأدية الشكر لله، بالطريقة المعتادة هذه المرة. ولكنه لاحظ بعد ذلك بأيام ـ حين بدأ بالتفكير في استغلال النقود ـ أنها لم تكن راضية كما كان يود أن تكون. فلما حدثها في ذلك أجابت:

ـ إننا يا شادراك نعد بالمئات. أما هم (وأشارت إلى الجانب الآخر من الطريق) هم يعدون بالألوف. لقد اشتروا عربة بحصانين منذ رحيلك.

ـ حقاً؟

ـ إنك لا تعرف كيف تسير الدنيا يا عزيزي شادراك. وعلى أي حال فعلينا أن نستغل المال على أحسن وجه. ولكنهم أغنياء جداً ونحن ما زلنا فقراء!

ومرّ ما يقرب من عام. وظلت جوانا تنتقل ما بين المنزل والدكان وظل الولدان يشتغلان في الميناء. ثم قال شادراك ذات يوم:

ـ إني أرى من حركاتك يا جوانا أن المال ليس كافياً.

فقالت: إنه بالفعل ليس كافياً، فسيضطر ولداي أن يعملا في السفن التي يملكها آل لستر. وقد كنت أعلى منها ذات يوم!

ولم يكن جوليف ممن يميلون للنقاش، ولكنه تمتم قائلاً: إنه سيفكر في القيام برحلة أخرى. وظل يفكر بضعة أيام ثم قال لها ذات يوم وقد عاد من الميناء:

ـ أستطيع أن أيسر لك ما تريدين يا عزيزتي، برحلة أخرى، إذا... إذا....

ـ تستطيع ماذا يا شادراك؟

ـ أن أجعلك تعدين بالألوف بدلاً من المئات.

ـ إذا... ماذا؟.

ـ إذا أخذت معي الولدين.

فامتقع لونها وقالت بسرعة: لا تقل هذا يا شادراك.

ـ لماذا؟

ـ لا أحب أن أسمعه! في البحر مخاطرة كثيرة. وأنا أريدهما أن يدخلا في الطبقة الراقية دون أن يلحق بهما أيّ خطر. ولا يمكنني أن أتركهما يخاطران بحياتهما في البحر. لا يمكنني ذلك أبداً. أبداً!

ـ وهو كذلك يا عزيزتي. لن يحدث ذلك.

وفي اليوم التالي قالت بعد فترة صمت:

ـ لو ذهب الولدان معك... فهل تظن أن ذلك يؤثر في الربح.

ـ إنه يجعله ثلاثة أضعاف ما أستطيع أن أحصل عليه بمفردي.

وبعد فترة عادت تقول: زدني حديثاً في هذا الأمر.

فقال: إن الصبيين لماهران جداً. وقد تدرّبا على حياة البحر منذ طفولتهما، ومن النادر أن تجدي حتى فيمن يكبرونهما سنّاً، من له مثل مهارتهما ودربتهما.

فسألت قلقة: وهل السفر في البحر خطر جداً؟ والحرب فيما يقولون على الأبواب...

ـ هناك أخطار دون شك، ولكن...

ظلت الفكرة تنمو وتتضخم، وقلب الأم يضطرب لها ويكاد يتحطم. ولكن ثروة إميلي كانت تزداد كل يوم وضوحاً، ولم يكن هذا مما يحتمل، ولم يكن في وسع جوانا أن تكفّ عن الحديث في أمر فقرهم بالنسبة إلى الآخرين.

وكان الصبيان حين يتحدث إليهما أحد في شأن الرحلة، يبديان استعدادهما للسفر. ومع أنهما كانا كأبيهما لا يحبّان البحر في ذاته، إلّا أنهما كانا يتحمسان للمشروع حين تتلى أمامهم تفاصيله.

وأصبح كل شيء معلقاً على رضا الأم وقد علقت رضاها مدة طويلة. ولكنها أعطت كلمتها آخر الأمر، وسمحت للولدين أن يصحبا أباهما. وكان سرور شادراك بذلك عظيماً. لقد حفظته السماء من قبل وقد أدى شكره لله على ذلك. ولن يتخلى الله عن أولئك المخلصين له.

ووضع في هذا المشروع كل ما يملك آل جوليف من حطام هذه الدنيا.

واقتصرت الدكانة على ما يكفل لجوانا القوت في المدة التي تستغرقها الرحلة، ولم تكن تدري كيف تحتمل تلك المدة المرهقة بمفردها. فقد كان الولدان معها في المرة السابقة يخففان عنها سآمة الانتظار. ولكنها جندت نفسها لاحتمال هذا القضاء.

وحملت السفينة بالأحذية والملابس الجاهزة وأدوات الصيد والزبد والجبن وأنواع عديدة أخرى من البضائع. وكان المفروض أن تحمل معها في عودتها الزيت والغراء والجلود والسمك وما شابه ذلك من الأشياء. ولكن كثيراً من البيع والشراء كان يحدث في أثناء الرحلة من ميناء إلى ميناء ويؤدي إلى الربح الوفير.

(3)

أبحرت السفينة صباح يوم اثنين من أيام الربيع، ولكن جوانا لم تشاهد إقلاعها. ولم تكن لتحتمل ذلك المنظر المؤلم الذي كانت هي السبب فيه. ولكن زوجها يعلم منها ذلك فأخبرها أنهم مبحرون قبيل ظهر الغد. فلما استيقظت في الخامسة صباحاً وسمعتهم يلغطون في الطابق السفلي لم تسرع بالنزول، بل بقيت في سريرها تحاول أن تحمل أعصابها على

احتمال موقف التوديع، ظناً منها أنهم لن يخرجوا قبل الساعة التاسعة كما صنع زوجها في السفرة السابقة. فلما نزلت آخر الأمر، رأت كلمات مكتوبة بالطباشير على واجهة المكتب... ولكنها لم تجد زوجاً ولا أبناء!

قال شادراك في تلك السطور المكتوبة على عجل: إنهم رحلوا بهذه الطريقة حتى يوفروا عليها ألم التوديع. وكتب الولدان تحت كلامه: «الوداع يا أماه!».

اندفعت جوانا إلى رصيف الميناء وحدقت ببصرها في الخط الأزرق الممتد في البحر على مدى البصر، ولكنها لم تتبين من السفينة (جوانا) إلا صواريها وقلوعها، ولم تر أشخاصاً، فقالت لنفسها: «إنني أنا التي أرسلتهم!» واندفعت تبكي بكاء جنونياً. فلما وصلت إلى المنزل كادت الكلمتان المكتوبتان بالطباشير: «الوداع يا أماه»، تحطمان قلبها تحطيماً. ولكنها حين دخلت الغرفة الأمامية وأرسلت بصرها إلى منزل إميلي أشرق وجهها النحيل ببريق النصر لخلاصها المنتظر من مذلة الفقر والضعة.

والحق أن ما أحست به جوانا كأنه ترفّع من إميلي عليها، لم يكن إلا خيالاً نشأ في صدرها الموتور. وما من شك في أن محيط الزوجة الغنية كان أفخم من محيطها هي. ولكن إميلي كانت تحاول دائماً كلما التقت بجوانا، أن تقلل من قيمة تلك الفوارق.

ومرّ الصيف الأول. ووجهت جوانا همها إلى الدكان الصغير الذي كانت إميلي أهم زبائنه في الحقيقة. وكان سلوك إميلي نحوها في الشراء وعدم مِجادلتها في الثمن الذي تقوله يثير المرارة في نفسها. لأنها كانت تشتم منه رائحة الشفقة والعطف.

وجاء الشتاء بقسوته وأدارت جوانا باب المكتب إلى الحائط حتى لا تمحو تقلبات الجو كلمات الوداع التي لم تقو هي على محوها. والتي طالما كانت تنظر إليها بعينين مغرورقتين.

وجاء ولدا إميلي لقضاء عطلة الميلاد، وسرى الحديث بشأن دخولهما الجامعة، وما زالت جوانا تعيش عيش الكفاف. ولكن... ما هو إلا صيف آخر وتنتهي اللعنة.

وحين اقترب الموعد قامت إميلي بزيارة صديقتها، فقد سمعت أنها بدأت تقلق إذ كانت لم تتلقَّ من زوجها ولا ابنيها رسالة منذ شهور.

والتقت جوانا صديقتها الغارقة في الحرير لقاء صامتاً، ثم قالت لها بعد أن دخلت غرفة الجلوس: إنك كلك نجاح... بينما أنا على عكسك في كل شيء.

فقالت إميلي: ولكن لماذا تفكرين على هذا النحو؟ لقد سمعت أنهم سيعودون بثروة عظيمة.

ـ أوه. أوَتظنين أنهم عائدون؟ لقد صار شكي أكبر مما تستطيع امرأة أن تحتمل ثلاثتهم في سفينة واحدة. تصوري ذلك! ولم أسمع عنهم شيئاً منذ شهور!

ـ ولكن الموعد لم يحل بعد. فلماذا تتعجلين الشر؟

ـ لا شيء يمكن أن يعوضني عن غيبتهم.

ـ فلماذا أرسلتهم إذن؟ لقد كنتم تحيون حياة لا بأس بها.

ـ أجل. أنا التي أرسلتهم. وسأخبرك عن السبب. لم أحتمل أن نزحف

نحن في الحياة زحفاً بينما أنت في هذا الثراء المتزايد. ها أنذا قد أخبرتك. وتستطيعين أن تكرهيني إذا أردت.

ـ لن أكرهك أبداً يا جوانا.

وقد أثبتت صدق قولها ذلك في المستقبل.

وجاء الخريف. وحل الموعد الذي كان يجب أن تصل فيه السفينة إلى الميناء، ولكن لم يظهر في الأفق ما يشبه السفينة جوانا. وحق لجوانا جوليف أن تقلق، وقد جلست إلى المدفأة ترتعش لكل خطرة من خطرات الريح. لقد كانت دائماً تخاف البحر وتمقته. ولم يكن يتراءى لها إلّا مخلوقاً خائناً مضطرباً خبيثاً يفرح بمصائب النساء.

ولكنها قالت لنفسها: «ومع ذلك فلا بد أن يعودوا».

وتذكرت في وحدتها أن شادراك حدثها قبل رحيله، أنه إذا عاد مع ابنيه سالمين وقد تكللت أعمالهم بالنجاح، فإنه سيذهب إلى الكنيسة كما ذهب مرة من قبل، ويركع معهما هناك مخلصاً شاكراً لله نجاتهما. فكانت تذهب إلى الكنيسة بانتظام كل صبح ومساء، وتجلس قرب عتبة المحراب وتحدق ببصرها في المكان الذي ركع فيه شادراك وهو في ميعة الشباب، وكانت تعي في ذاكرتها بكل دقة النقطة التي ثبّت فيها ركبتيه قبل عشرين عاماً، ومنظره وهو راكع، وقبعته على الأرض بجانبه. إن لله رحيم. ولا شك أن زوجها سيركع هناك مرة أخرى وولداه على جانبيه كما حدثها: «جورج» من هنا و «جم» من هناك. ولطول مراقبتها ذلك المكان، خُيّل إليها كأنها ترى العائدين: ولديها الصغيرين وزوجها الضخم وقد ركعوا وشبكوا أيديهم على صدورهم. واشتد الخيال حتى كاد يصير خبلاً، فما تكاد تتجه ببصرها إلى المكان حتى تراهم هناك.

ومع ذلك فلم يحضروا. إن السماء رحيمة. ولكنها لم تسمح بعد بإنقاذ روحها من العذاب. لقد كان هذا العذاب تطهيراً لها من جريمتها، إذ جعلتهم عبيداً لأطماعها.

ولكن سرعان ما أصبح العذاب أشد من أن يكون تطهيراً. وصارت حالتها أقرب إلى اليأس. فقد مرت شهور منذ حل الموعد المناسب لرسوّ السفينة ولكنها لم ترجع.

وكانت جوانا تسمع دائماً أو ترى شواهد من عودتهم. فعندما تكون على التل وراء الميناء، حيث يستطيع الواقف أن يرى البحر على اتساعه، كانت تحس واثقة أن تلك النقطة التي تضرب أمواج البحر اللانهائية هنالك عند الأفق هي جوانا. وعندما تكون في منزلها فتسمع أيّ صوت أو ضوضاء في الشارع المؤدي إلى رصيف الميناء تهب واقفة على قدميها وهي تصيح «هؤلاء هم».

ولكنهم لم يكونوا هم. وما زالت أشخاصهم الوهمية تركع كل يوم أحد في الكنيسة. ولكن الأشخاص الحقيقية لم تركع. وقد فرغ دكانها لأنها في آلامها وأشجانها لم تعد تستطيع البيع والشراء. وحاولت إميلي في تلك الآونة أن تساعدها بكل وسيلة، ولكنها كانت تقابل كل مرة بالإعراض والنفور.

لقد كانت تقول لها هامسة بصوتها المبحوح: لست أحبك. لست أطيق أن أراك.

فتقول إميلي: ولكنني أريد أن أساعدك وأخفف عنك.

ـ إنك سيدة ذات زوج غنيّ وولدين رشيقين. أيّ شيء يربطك بامرأة ثكلى مثلي؟

ـ إنني أريد منك يا جوانا أن تحضري عندي، وتقيمي في بيتي. ولا تبقي في ذلك المكان الكئيب بعد اليوم.

ـ افرضي أنهم جاؤوا فلم يجدوني في منزلي. أتريدين أن تفرقي بيني وبين أهلي؟ كلا. سوف أبقى هنا. لست أحبك، ولست أستطيع أن أشكرك مهما أبديت نحوي من العطف والشفقة.

ولكن جوانا لم تستطع مع مرور الزمن أن تدفع إيجار المنزل والدكان بغير دخل. وتأكدت أن كل آمالها في رجوع رجلها وولديها كانت عبثاً، فاضطرت كارهة أن تنزح إلى منزل إميلي حيث خصصت لها حجرة في الطابق الثاني، وكانت تذهب أو تجيء كما تشاء دون أن تختلط بالعائلة. واغبرّ شعرها ثم ابيضّ وتجعدت جبهتها بغضون عميقة، وانحنى جسمها وتضاءل. ولكنها ظلت مع ذلك تتوقع عودة المفقودين. وكانت إذا لقيت إميلي على السلّم تقول لها بمرارة:

ـ أنا أعلم لماذا أتيت بي إلى هنا. إنهم سيرجعون. فإذا لم يجدوني في المنزل استاؤوا وربما رحلوا مرة أخرى. فتنتقمين لنفسك من استيلائي على شادراك، وأخذه منك.

وكانت إميلي تحتمل هذا الكلام من المرأة المفئودة، فقد كانت واثقة كما كان ـ جميع سكان هافنبول واثقين ـ من أن شادراك وولديه لا يمكن أن يعودوا. وقد اعتبرت السفينة مفقودة منذ سنين. ومع ذلك فقد بقيت جوانا تنهض من سريرها في الليل لترقب الدكان المواجه لها في ضوء المصباح المتأرجح لتتأكد من أنهم ليسوا هناك.

وكانت ليلة مظلمة من ليالي ديسمبر، بعد ست سنوات من رحيل

السفينة جوانا، وكانت الرياح تهب آتية من البحر فتملأ الجو بغبش الضباب، وكانت جوانا جوليف قد صلت صلاتها ودعت دعواتها المعتادة للغائبين، بحرارة وثقة لم تعهدهما منذ شهور. ثم نامت حوالي الحادية عشرة. وكان الوقت بين الواحدة والثانية صباحاً حين هبت من نومها فجأة. لقد سمعت على وجه اليقين، وقع أقدام على الطريق، وصوت شادراك وولديها ينادون عند باب الدكان. وهبّت من سريرها واندفعت تهبط السلّم المفروش وهي لا تكاد تعرف بأيّ شيء قد غطت جسدها الناحل. ووضعت الشمعة على منضدة في الردهة وحلت سلاسل الباب ومزلاجه، وخرجت إلى الطريق. وعاقها الضباب المندفع من الميناء عن رؤية الدكان مع قربه الشديد، ولكنها عبرت الطريق في لحظة.

كيف كان ذلك؟ لا أحد هناك.

ومشت المرأة بقدميها العاريتين، تقطع الشارع جيئة وذهاباً في جنون. ليس في الشارع أحد.

وعادت تطرق بكل قوتها على الباب الذي كان بابها يوماً ما. ربما كانوا قد دخلوا ليقضوا الليلة هناك، لكيلا يزعجوها حتى الصباح.

ومرت عدة دقائق قبل أن يطل الشاب الذي كان في ذلك الوقت يحتل الدكان، من نافذة عالية، ويرى هيكلاً يشبه هياكل الأناسي، واقفاً على الأرض لا تكاد الملابس تستره.

قال الشبح: هل حضر أحد؟

فرد الشاب في عطف رحيم ـ إذ كان يعلم كيف يؤثر في نفسها ما تنتظره على غير أساس:

ـ أوه يا مسز جوليف. لم أكن أعلم أنك أنت. لا. لم يحضر أحد.

الزوجة الثانية عشرة

لسومرست موم

(1)

«إلسوم» مرفأ على شاطىء البحر في جنوب إنكلترا لا يبعد كثيراً عن «برايتون». وأنا أحبه لأنه مكان هادئ لا صخب فيه ولا ضجيج، وقد زرته مرة في نوفمبر ـ بعد إصابة شديدة بالإنفلونزا ـ لأستجم وأستعيد قوتي. فلما وصلت في العصر وأودعت حقائبي في فندق «الدلفين» خرجت أتمشى على الشاطىء، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، والبحر هادىء مخضرّ اللون بارداً، وبضعة «نوارس» تطير بالقرب من الشاطىء. وكانت أكواخ الاستحمام المنتظمة في خط طويل جميل فارغة. ولم يكن أحد يجلس على المقاعد التي وضعها المجلس البلدي على الشاطئ، ولم أرَ الشاطئ في حياتي أشد إقفاراً مما رأيته في ذلك اليوم. وبدت البيوت المعدة للإيجار كعوانس في انتظار عشاق لن يعودوا أبداً، فشعرت بانقباض في صدري، وعدت إلى الفندق، وأوقدت النار، وحاولت أن أتسلى بقراءة كتاب...

فلما حان موعد العشاء نشطت إليه، ونزلت إلى حجرة الطعام،

ووجدت النزلاء قد سبقوني إلى الجلوس، فألقيت إليهم نظرة عابرة. وكان النزلاء سيدة متوسطة العمر تجلس بمفردها ورجلين متقدمين في السن يتناولان طعامهما بهدوء وصمت. ولم يكن يوجد غير هؤلاء إلّا مجموعة من ثلاثة أشخاص يجلسون بالقرب من النافذة، وسرعان ما استرعوا انتباهي ودهشتي.

كانت المجموعة تتألف من رجل هرم وسيدتين: إحداهما متقدمة السن وربما كانت زوجته، والأخرى أصغر منهما وربما كانت ابنته. وقد كانت السيدة الكبيرة أول من استرعى انتباهي. فقد كانت ترتدي ثوباً فاخراً من الحرير الأسود وقبعة سوداء وحول معصميها أساور ثقيلة من الذهب، وحول عنقها قلادة ذهبية ثقيلة. ولم أكن أعتقد أن أحداً لا زال يستعمل هذه الأنواع من الحلي، وقد كنت أمرّ بمحلات الحلي القديمة فأرى تلك القطع الصلبة الثقيلة الغالية الثمن، فأبتسم ابتسامة تشوبها مرارة الأسى على أولئك النسوة اللاتي كن يلبسنها، واللاتي صرن في عداد الموتى من زمن بعيد!

وكانت المرأة الصغرى تجلس وظهرها إليَّ، فلم أستطع أن أرى بادىء الأمر إلّا أن لها جسماً ضئيلاً نضيراً شابّاً. وكان لها شعر غزير بني اللون تظهر العناية الفائقة في تصفيفه، وكانت ترتدي ثوباً رمادياً. وكان ثلاثتهم يتكلمون بصوت منخفض.

ثم حوّلت رأسها فرأيت جانب وجهها وكان جميلاً إلى حد مدهش، وأنفها مستقيم دقيق، وخدها منسق تنسيقاً بديعاً.

وانتهى العشاء فنهض الجماعة، وخرجت السيدة العجوز مسرعة لا

تلتفت يمنة ولا يسرة. وتبعتها الصغرى، وعند ذلك فوجئت مفاجأة عنيفة بأنها كانت عجوزاً هي الأخرى. كانت طويلة نحيفة رشيقة القوام، أنفها أشبه شيء بأنف إلهة إغريقية، وفمها جميل وعيناها واسعتان زرقاوان، وجلد وجهها متغضن قليلاً، وعلى جبينها بعض التجاعيد، ولكن لا شك أن وجهها كان في شبابها جميلاً جذاباً...

ونهض الرجل حين غادرته المرأتان ثم عاد إلى الجلوس. وأحضر له أحد الخدم كأساً من النبيذ المعتق، فراح يشمه ثم يرتشف ببطء؛ وجعلت ألاحظه فوجدته ضئيل الحجم، أقصر كثيراً من زوجته الضخمة، ولم يكن عاري الجسد من اللحم وإن كان غير مكتنز، رأسه دقيق تعلوه خصل من الشعر الأبيض، وكان وجهه كثير التجاعيد فيه أثارة من المرح، وشفتاه مزمومتين وذقنه مربعاً. وكان الإسراف يبدو في ملابسه إذا قيست ببساطة الملابس في الوقت الحاضر. وما إن انتهى الرجل من ارتشاف كأسه على مهل حتى نهض خارجاً من الغرفة.

وبينما أنا أعبر الردهة رحت بدافع الفضول أقرأ أسماء النزلاء، فرأيت من بينها: مستر أدوين سان كلير وزوجته، والآنسة إليانور بوركستر وعنوانهم: لندن، ميدان لنستر رقم 68. لا بد أن تكون هذه أسماء الجماعة التي استرعت انتباهي، وأن يكون هذا عنوانهم. وقد سألت مديرة الفندق: من هو سان كلير هذا؟

فأجابتني أنها تعتقد أنه رجل مهم في حيّ الأعمال بلندن.

وذهبت إلى حجرة البليارد فلعبت بعض الوقت ثم عرجت ـ في طريقي إلى الأعلى ـ على غرفة الاستراحة، فوجدت المجموعة الثلاثية

في أحد الأركان، وكانت المرأتان منهمكتين في التطريز، بينما راح المستر سان كلير يقرأ بصوت مسموع.

وقضيت معظم اليوم التالي في الكتابة والمطالعة. ولكني خرجت أتمشى في العصر وجلست حين عودتي على أحد تلك المقاعد المريحة على شاطىء البحر. ولم يكن الجو بمثل برودة الأمس، وكان الهواء يبعث في النفس الرضا والسرور؛ ولم يكن لديّ ما أعمله، فرحت أرقب شبحاً يقترب نحوي من بعيد، وتبينته فإذا هو رجل رثّ الهيئة ضئيل الحجم يرتدي معطفاً أسود رقيقاً، وكان يسير وقد وضع يديه في جيبيه وبدا عليه البرد، ونظر إليّ نظرة عابرة وهو يمرّ بي، ثم مضى بضع خطوات، وتردد، ووقف، ثم رجع. فلما صار عند المقعد الذي أجلس عليه أخرج إحدى يديه من جيبه ولمس بها قبعته. فلاحظت أنه يلبس قفازاً أسود اللون، واستخلصت من حاله أنه أرمل قد ضيقت عليه الظروف، أو أنه ناقه مثلي من إنفلونزا حادة.

قال: «معذرة يا سيدي، ولكن هل تستطيع أن تتفضل عليّ بعود من الثقاب؟».

قلت: «طبعاً»...

وجلس بجانبي، وبينما كنت أضع يدي في جيبي لأخرج علبة الثقاب كان هو يبحث في جيبه عن السجائر، ثم أخرج علبة صغيرة، وطأطأ رأسه خجلاً وهو يقول:

ـ يا لله! هذا أمر سيئ جداً! لم تبقَ معي لفافة واحدة.

فأجبته مبتسماً: «اسمح لي أن أقدم لك لفافة».

وأخرجت له علبتي فأخذ منها لفافة، ثم طرق عليها طرقة خفيفة وقال:

ـ أمن الذهب هي؟ الذهب! ذلك شيء لم أستطع قط أن أحتفظ به. لقد كان معي ثلاث من هذا النوع سرقت جميعاً.

واتجهت عيناه بحزن إلى حذائه الذي كان في حاجة ماسة إلى الإصلاح...

كان رجلاً نحيفاً، صغير الجسم، له أنف دقيق طويل، وعينان زرقاوان باهتتان، وجلده أصفر قاتم، ولم أستطع أن أتبيّن عمره على وجه التحديد، فربما كان في الخامسة والثلاثين، وربما كان في الستين. ولم يكن فيه من شيء يسترعي الملاحظة إلّا خلوه من كل تعبير...

ولكنه رغم فقره البادي كان نظيفاً مرتباً، وكان له مظهر محترم، وكان هو يتشبث بمظاهر الاحترام. وقد بدا لي كأنه كاتب محامٍ قد دفن زوجته منذ وقت قريب، فأرسله رئيسه الكريم إلى إلسوم ليتَسلى عن حزنه العميق...

وسألني: «هل أنت مقيم هنا طويلاً يا سيدي؟».

ـ عشرة أيام أو أسبوعين...

ـ أهذه زيارتك الأولى لإلسوم يا سيدي؟

ـ لقد جئت إلى هنا من قبل...

ـ إنني أعرفها جيداً يا سيدي، ويسرني أن أقول: إنه قلّ أن يوجد مكان على شاطئ البحر لم أزره مرة أو أكثر. وإلسوم مكان جميل، تجد فيه طبقة عالية من الناس، وليس فيها صخب ولا ضجة. وإن لها في نفسي ذكريات حلوة يا سيدي. لقد تزوجت هنا في كنيسة سان مارتن يا سيدي.

فقلت بغير حماسة: حقاً؟

ـ وكان زواجاً سعيداً جداً يا سيدي...

فقلت: «يسرني أن أسمع ذلك».

فقال وهو يستعيد ذكرياته: وقد استمر هذا الزواج تسعة أشهر...

وكان في هذه العبارة دون شك شيء من الغرابة، وقد كنت أتوقع من قبل أنه لا بد سيدخل في حديث عن تجاربه الزوجية، ولم أكن أشعر بأيّ حماسة لذلك، ولكني الآن انتظرت ـ إن لم يكن بشغف، فبدافع الفضول على الأقل ـ أن يكمل عبارته الغريبة تلك، ولكنه لم يقل شيئاً غير أن تنهد قليلاً، وأخيراً قطعت الصمت بقولي:

ـ لا يبدو أن هنا كثيراً من الناس.

ـ إنني أحب هذا، فلست أميل إلى الزحام، وقد قلت منذ لحظة إنني قضيت سنوات عدة في مختلف الأماكن على ساحل البحر، ولكني لا أذهب إلى هناك في الموسم أبداً، وإنما هو الشتاء الذي أحب.

قلت: «ولكن ألست تجد فيه شيئاً من الكآبة؟».

فالتفت إليّ ووضع يده ذات القفاز الأسود على ذراعي لحظة، ثم قال:

ـ إنه كئيب فعلاً، وبسبب هذه الكآبة يكون شعاع الشمس الضئيل شيئاً عظيماً يستأهل الترحيب. وقد بدت لي تلك العبارة غاية في الغباء، فلم أجب، وسحب الرجل يده من فوق ذراعي ونهض وهو يقول: «لا ينبغي لي يا سيدي أن أحتجزك، وأنا سعيد بالتعرف إليك».

ورفع قبعته القذرة بأدب شديد، وتسلل من المكان. وكان الجو قد بدأ

يبرد فرأيت من الأفضل أن أعود إلى الفندق. وما إن وصلت إلى سلّمه العريض حتى رأيت عربة تقترب يجرّها حصانان هزيلان، فلما وقفت نزل منها المستر سان كلير، ثم مد يده إلى زوجته ثم إلى ابنة أخته، وتبعهم الحمّال يحمل بعض البُسط والوسائد. ولما نقد المستر سان كلير السائق أجره، سمعته يطلب منه أن يجيء في الغد في الموعد المعتاد، ففهمت من ذلك أنهم يقومون كل يوم بنزهة في العربة، ولم أكن لأدهش لو علمت أن أحداً منهم لم يركب السيارة في حياته!

وأخبرتني مديرة الفندق أنهم يعتزلون الناس ولا يسعون إلى التعرف بأحد من النزلاء، وقد رحت أراقبهم وهم يأكلون ثلاث مرات كل يوم، ولاحظت المستر سان كلير وزوجته وهما يتشمسان عند أعلى درجات السلّم في الصباح: هو يقرأ «التيمس» وهي تشتغل بالتطريز، وأحسب أنها لم تقرأ في حياتها مجلة، فلم يكونا يأخذان معهما شيئاً إلا «التيمس». وفي نحو الساعة الثانية عشرة كانت الآنسة «إليانور بوركستر» تنضم إليهما.

قالت مسز سان كلير: «هل استمتعتِ بالمشي اليوم يا إليانور؟».

فأجابت إليانور: «لقد كانت نزهة طيبة يا عمتي جرترود».

وفهمت أنه كما كان للمسز سان كلير نزهة مسائية في العربة فكذلك كان للآنسة إليانور نزهة صباحية سيراً على الأقدام.

وقال المستر سان كلير وهو ينظر إلى ما في يد زوجته من تطريز: «عندما تصلين إلى نهاية السطر يحسن بنا أن نتمشى قليلاً قبل الغداء».

فأجابت الزوجة: «هذا جميل جداً». وطوت (الشغل) وأعطته لإليانور قائلة:

ـ إذا كنت ذاهبة إلى الأعلى فهل لكِ في أخذ هذا معك؟

ـ طبعاً يا عمتي.

أراك متعبة قليلاً من السير يا عزيزتي...

ـ سأستريح قليلاً قبل الغداء...

ودخلت إليانور إلى الفندق، وسار المستر سان كلير وزوجته ببطء على شاطىء البحر إلى نقطة معلومة، ثم عادا ببطء إلى الفندق...

وكنت إذا لقيت أحداً منهم على السلّم أنحني للتحية فأقابل بانحناءة مؤدبة لا ابتسام فيها، وفي الصباح كنت أخاطر بأن أقول: «نهار سعيد»، ولكن المسألة كانت تنتهي عند هذا الحد. وخُيّل إليّ أنه لن تتاح لي أبداً فرصة التحدث إلى أحد منهم، ولكن ما لبثت أن رأيت كأنما المستر سان كلير يصوب إليّ نظرة بين الحين والحين، وخُيّل إليّ ـ ربما كان ذلك بدافع الغرور ـ أن الرجل قد سمع اسمي فأثار ذلك فضوله. وكنت جالساً في غرفتي بعد ذلك بيوم أو يومين حين جاءني الخادم برسالة كتب فيها:

«المستر سان كلير يبلغك تحيته ويسأل عما إذا كان في إمكانكم أن تعيروه تقويم ويتاكر».

فدهشت وقلت: «أيّ شيء يا ترى جعله يحسب أنني أقتني مثل هذا التقويم؟».

ـ لقد أخبرته مديرة الفندق يا سيدي أنك تؤلف.

ولم أستطع أن أرى العلاقة بين التأليف وبين اقتناء هذا التقويم، قلت:

ـ قل للمستر سان كلير: إنني آسف جداً لأني لا أملك نسخة منه، ولكن لو كانت معي لأعرتها له بكل سرور.

وهنا سنحت لي الفرصة، فقد كنت في شغف شديد بأن أعرف عن كثب أطوار هذه المجموعة العجيبة، وقد كنت أجد بين الحين والحين في أثناء تجوالي في قلب آسيا قبيلة منعزلة تعيش في قرية صغيرة بين سكان لا يمتّون لهم بصلة، ولا يعلم أحد كيف جاؤوا إلى ذلك المكان، فهم يحيون حياتهم الخاصة، ويتكلمون لغتهم الخاصة، ولا يتصلون بجيرانهم أيّ اتصال، ولا يدري أحد على وجه التحقيق ما إذا كانوا من نسل قافلة خلفها قومها وراءهم في أثناء الترحال الواسع النطاق داخل القارة، أم إنهم بقية في طريق الفناء من قوم عظام كانوا ذات يوم أصحاب ملك واسع في هذا المكان. هم لغز لا يحل، لا مستقبل لهم ولا تاريخ. وبدا لي أن هذه العائلة الصغيرة العجيبة هي من هذا النوع، فهم من عصر مات وانتهى. وهم يذكرونني بأشخاص الروايات التي كان يقرؤها آباؤنا في الزمان القديم، إنهم من أبناء القرن التاسع عشر، وقد وقفوا منذ ذلك الحين لا يتقدمون. وكم يبدو عجيباً أنهم عاشوا مدة الأربعين سنة الأخيرة، دون أن يشعروا بحركة الزمن!

وفي ذلك المساء ذهبت بعد العشاء إلى غرفة الاستراحة ووجهت الحديث إلى المستر سان كلير بشجاعة: «أنا آسف لعدم وجود تقويم ويتاكر معي. ولكن إذا ما كان من بين ما معي من الكتب شيء يصلح لكم فإني أكون سعيداً بإعارتكم إياه».

ولا ريب أن المستر سان كلير قد فوجىء وأُخذ، وظلت المرأتان منهمكتين في (شغلهما) لا ترفعان عنه أعينهما. وسادت لحظة صمت منشؤه الحيرة التي أحدثتها المفاجأة. ثم قال الرجل: «لا. لا تتعب نفسك. وإنما كنت قد علمت من مديرة الفندق أنك كاتب قصصي».

كان من الواضح أن هناك علاقة بين عملي وبين تقويم ويتاكر، علاقة غابت عن ذهني، وأعملت فكري فلم أهتدِ إلى شيء. ولكن الرجل استطرد يقول:

ـ في الأيام الخالية كان مستر ترولوب يتناول الطعام في منزلنا في أوقات متقاربة، ولا زلت أذكر قوله إن أنفع كتابين للقصاص هما: الإنجيل وتقويم ويتاكر.

فقلت حريصاً على أن يبقى الحديث متصلاً: «لقد علمت أن ثاكري قد أقام في هذا الفندق زمناً»؟

قال: «لم أكن أهتم كثيراً بمستر ثاكري، ولو أنه تناول الطعام أكثر من مرة على مائدة والد زوجتي المستر سارجنت سوندرز. لقد كان أشد سخرية مما أحتمل. وهذه ابنة أختي لم تقرأ روايته (سوق الغرور) حتى اليوم».

واحمرّ وجه الآنسة إليانور قليلاً حين سمعت تلك الإشارة إليها. ودخل أحد الخدم بالقهوة فقالت السيدة لزوجها: «ربما رضي هذا السيد أن يشرفنا بشرب قهوته معنا».

ومع أني لم أخاطب مباشرة فقد أجبت على الفور: «أشكرك شكراً جزيلاً» وجلست. وعاد المستر سان كلير يقول: «لقد كان المستر ترولوب كاتبي المفضل، فقد كان في دخيلة نفسه (جنتلمان). وأنا أعجب بشارلس دكنز، ولكن شارلس دكنز لم يستطع قط أن يرسم شخصية (جنتلمان). أما ابنة أختي فهي تفضل قراءة قصص المستر وليم بلاك».

فقلت: «لا أحسب أني قرأت شيئاً منها».

قال: «إني أرى أنك مثلي، لست حديثاً. لقد أقنعتني ابنة أختي مرة أن أقرأ قصة لواحدة من المؤلفات المحدثات تدعى مس رودا بروتون، ولكني لم أستطع أن أتمّ منها أكثر من مئة صفحة».

فقالت الآنسة إليانور تدافع عن نفسها وقد احمرّ وجهها حياء مرة أخرى:

ـ لم أقل إنني أحبها يا عمي إدوين. وقد أخبرتك أنها خليعة نوعاً ما، ولكن كل الناس كانت تتحدث عنها في ذاك الوقت.

ـ لا شك عندي أنها ليست مما تودّ لكِ عمتك جرترود أن تقرئيه يا إليانور.

فقلت: «إني لأذكر أن رودا بروتون قد قالت لي مرة: إن الناس كانوا يقولون عن كتابتها وهي صغيرة إنها خليعة، ثم أصبحوا يقولون عنها بعد أن كبرت إنها جامدة، مع أنها ظلت تكتب أربعين سنة كتابة من نوع واحد».

فقالت إليانور موجهة الحديث إليّ لأول مرة: «هل كنت تعرف رودا؟ ما أجمل ذلك! وهل عرفت أويدا؟».

ـ يا عزيزتي إليانور! ماذا بقي بعد هذا! لا شك أنك لم تقرئي شيئاً لأويدا.

ـ بل قرأت يا عمي إدوين. قرأت قصة (تحت علمين) وتلذذت بقراءتها جداً.

ـ إنكِ تثيرين عجبي وتفزعينني يا إليانور. ولست أدري إلى أيّ مدى قد وصلت الفتيات في زماننا هذا.

ـ لقد كنت دائماً تقول لي إنك ستعطيني حرية كاملة في المطالعة حين أبلغ الثلاثين...

ـ ولكن هناك فرقاً يا عزيزتي إليانور بين الحرية والإباحية.

قال المستر سان كلير ذلك وهو يبتسم قليلاً حتى يخفف من وقع اللوم. ولكنه قال بلهجة جادة:

ـ ولست أدري هل نجحت في نقل صورة واضحة إلى ذهن القارئ عن هؤلاء القوم القدامى الذين كانوا شباباً في سنة 1880! وكان بودّي لو أرى منزلهم، فأرى في غرفة الجلوس قطع الأثاث الضخمة كل قطعة في مكانها المعد لها بدقة. وفي غرفة الطعام تجد البسط التركية وصواناً من الخشب الثقيل يرزح تحت عبء الفضيات الثقيلة... إلخ.

وفي الصباح التالي بينما كنت أسير في أحد الطرق الضيقة في طرف المدينة قابلت الآنسة إليانور تؤدّي نزهتها الصباحية سيراً على الأقدام. ووددت أن أسير معها قليلاً، ولكني تيقنت أنه مما يثير اضطراب هذه العذراء في الخمسين من عمرها، أن تتمشى وحدها مع رجل، ولو كان في مثل سني الوقور.

وانحنت لي حين مررت بها واحمرّ وجهها خجلاً. ولكن الذي أدهشني أنني رأيت وراءها بخطوات قليلة ذلك الرجل الغريب الرث الهيئة الذي تحدثت معه من قبل بضع دقائق على شاطئ البحر، ولمس الرجل قبعته محيياً وقال:

ـ معذرة يا سيدي. ولكن أيمكن أن تتفضل عليّ بعود من الثقاب؟

فقلت: «بلا شك. ولكن أخشى ألا يكون معي سجائر».

فقال: «اسمح لي أن أقدم لك واحدة من سجائري. وأخرج علبته. وكانت فارغة».

فقال: «يا لله! ليس معي ولا واحدة. يا له من اتفاق غريب!»

ثم مضى عني وخُيّل إليّ أنه يسرع الخطى. وبدأت أشك في أمره. ورجوت في نفسي ألّا يكون في نيته مضايقة الآنسة إليانور. وهممت أن أعود إليها ولكني لم أفعل. فقد كان رجلاً مهذباً، ولم أعتقد أن مثله يتعرض لمضايقة امرأة تسير بمفردها.

ورأيته مرة أخرى في ذلك المساء نفسه وكنت جالساً على الشاطئ فسار نحوي بخطى مضطربة، وكانت الريح تهب، فبدا كالورقة الجافة تسوقها الريح أمامها. ولم يتردد هذه المرة بل جلس بجانبي قائلاً: «ها نحن أولاء نلتقي مرة أخرى يا سيدي، فالدنيا مكان ضيق. ولعلك تسمح لي أن أرتاح بضع دقائق هنا إذا كان هذا لا يضايقك، فأنا متعب قليلاً».

قلت: «هذا مقعد عام ولك حقّ الجلوس عليه بقدر ما لي».

ولم أنتظر حتى يطلب مني عود ثقاب بل قدمت له سيجارة على الفور. فقال:

ـ ما أرق شعورك يا سيدي! إن عليّ أن آخذ نفسي بالامتناع عن التدخين بكثرة ولكني أستمتع بما أدخنه. فكلما كبر الإنسان قلّت مسرّاته. ولكن تجاربي تدلني أنه يستمتع بما بقي منها استمتاعاً أقوى وأشد.

ـ تلك فكرة فيها عزاء كبير.

ـ معذرة يا سيدي. هل أنا على حق في اعتقادي بأنك ذلك المؤلف المشهور؟

قلت: إنني مؤلف. ولكن ماذا دعاك إلى هذا الاعتقاد؟

قال: «لقد رأيت صورتك في الصحف المصورة. أحسبك لا تعرفني؟»

فأعدت النظر إليه فوجدته كما رأيته أول مرة: رجلاً ضئيل الحجم يلبس ملابس نظيفة ولكنها رثة. أنفه طويل وعيناه زرقاوان دامعتان.

وقلت: «أخشى أن أقول إنني لا أعرفك».

فتنهّد وقال: «لقد تغيرت. وقد مرّ بي وقت كانت فيه صورتي في كل صحيفة في المملكة المتحدة. ولكن يقيني أن هذه الصور التي تنشر في الصحف لا تعطي الملامح بدقة. وأقول لك بصراحة يا سيدي إنني لولا أن رأيت اسمي تحتها ما عرفت أنني المقصود بها».

وصمت لحظة. وكان المد قد انتهى وابتدأ الجزر فانكشف من قاع البحر جانب يعلوه الطين الأصفر.

ثم عاد يقول: «لا بد أنه شيء لطيف جداً أن يكون الإنسان مؤلفاً يا سيدي. لقد خُيّل إليّ في بعض الأحيان أن أؤلف بنفسي. وقد قرأت كثيراً فيما مضى وإن كنت قد انقطعت عن القراءة في المدة الأخيرة لأن عينيَّ لم تعودا صالحتين لذلك كما كانتا من قبل. وأحسبني أستطيع أن أؤلف كتاباً لو حاولت».

فأجبته: «يقولون إن كل إنسان يستطيع أن يؤلف كتاباً».

قال: «لا أعني قصة، فلست مهيأً للقصص. ولكني أفضل التواريخ وما إليها، والمذكرات. إنني لا أتردد في كتابة مذكراتي إذا لقيت جراءها الحق».

ـ إنها أمر شائع في هذه الأيام.

ـ ليسوا كثيرين أولئك الذين جربوا تجاربي الخاصة. وقد كتبت إلى إحدى الصحف الأسبوعية في هذا الشأن ولكنهم لم يردوا على رسالتي أبداً.

ثم سدد إليّ نظرة طويلة فاحصة، وكان رجلاً تبدو عليه سمات الاحترام، فلم أفكر في أنه يهم بسؤالي عن نصف جنيه أو ما شابه ذلك. ثم قال:

ـ أنت بلا شك لا تعرفني يا سيدي؟ أليس كذلك؟

ـ بصراحة، لا أعرفك.

وبدا عليه لحظة كأنما يفكر، ثم راح يمسح قفازه الأسود بأصابعه، وينظر لحظة إلى خرق في أحد الأصابع ثم التفت إليّ وقال: «أنا مورتمر إلس الشهير».

فقلت باستغراب: «ماذا؟!»

ولم أدرِ في الحقيقة ماذا أقول غير ذلك، فإن هذا الاسم لم يطرق سمعي من قبل أبداً. ورأيت على وجهه علائم عدم الرضا فشعرت بشيء من الخجل.

وعاد يكرر: «مورتمر إلس. لا أظنك ستقول إنك لا تعرفه».

قلت: «أحسبني مضطراً أن أقول ذلك. فإني كثيراً ما غادرت إنكلترا إلى الشرق».

ولم أدرِ إلى أيّ شيء تعزى شهرته، ورحت أفكر في احتمالات عدة.

فلم أجد من الممكن أن يكون بطلاً رياضياً. وتلك هي الطريقة الوحيدة لنيل شهرة حقيقية في إنكلترا. ولكن ربما كان ممن يشفون الأمراض بالإيحاء النفسي، أو ربما كان من أبطال لعبة البليارد. ولا شك أنه لا يوجد أخفى ذكراً من وزير خارج الحكم، ولكن هذا لا تبدو عليه علائم رجال السياسة.

وقال الرجل بمرارة: «تلك آخر الشهرة. لقد ظللت أسابيع وأنا أكثر الناس حظاً من الذكر في إنكلترا. انظر إليّ. لا بد أنك رأيت صورتي في الصحف. مورتمر إلس».

فقلت وأنا أهز رأسي «آسف».

فصمت لحظة ليعطي تصريحه ما يستحق من التأثير ثم قال:

ـ أنا مورتمر إلس الشهير بتعدد الزوجات!

بأيّ شيء يا ترى تجيب رجلاً غريباً عنك يحدثك بأنه شهير بتعدد الزوجات؟ إنني أعترف بأني كنت أعتقد ـ غروراً مني ـ بأن الحيرة لا تعقد لساني عن الإجابة عن أيّ سؤال. ولكني هنا وجدت نفسي عاجزاً عجزاً تاماً عن الكلام.

واستطرد الرجل: «لقد كان لي إحدى عشرة زوجة يا سيدي».

قلت: «معظم الناس لا تتجاوز طاقتهم أن يعالجوا أمر زوجة واحدة».

قال: «ذلك نقص في المرانة. ولكنك عندما تحوز إحدى عشرة فمن النادر أن يغيب عنك شيء يختص بالنساء».

ـ ولكن لماذا وقفت عند إحدى عشرة؟

ـ انظر. لقد كنت أعلم أنك ستقول ذلك. فمنذ أن رأيتك قلت في نفسي

إن وجهه يدل على الذكاء. إن هذا الأمر ليضايقني جداً فإن الأحد عشر عدد مثير للضحك والاستغراب، وفيه ما يوحي بأنه ناقص لم يتم. فأيّ إنسان يستطيع أن يحوز ثلاثة مثلاً. والسبعة عدد لا بأس به. ويقولون إن التسعة تجلب الحظ. والعشرة لا غبار عليها. ولكن الأحد عشر! هذا هو الشيء الوحيد الذي آسف له، ولم أكن لآسى على شيء لو أنني أكملتهن إلى اثنتي عشرة... !

ثم أخرج من جيب داخلي في سترته كتاباً منتفخاً قد علا الوسخ جلدته، وأخرج من ذلك الكتاب حزمة من قصاصات الصحف قد بليت واتسخت وتقلصت ومدها إليّ قائلاً:

ـ انظر إلى هذه الصور ثم دعني أسألك: أهي تشبهني؟ هذا أمر يغيظ. ليخيل إلى من يراها أنني مجرم.

وكانت القصاصات كبيرة الحجم. وكان من الواضح أن مخبري الصحف قد وجدوا من أخباره مادة صالحة لكتاباتهم. وكان عنوان إحدى القصاصات: «رجل يتزوج بكثرة»، وأخرى: «التحقيق مع وغد لا قلب له»، وثالثة: «وغد حقير يلقى جزاءه».

فتمتمت قائلاً: «ليس هذا ما تستطيع أن تسميه صحافة صالحة».

فقال وهو يهز كتفيه: «إنني لا ألقي انتباهاً إلى ما تكتبه الصحف، فقد خبرت بنفسي عدداً كبيراً من رجال الصحافة. ولكنما القاضي هو الملوم. لقد عاملني بقسوة وعنف، ولم يكن ذلك في صالحه. وأعلم أنه مات في السنة ذاتها».

ومررت ببصري في الورقة التي كانت في يدي ثم قلت: «أرى أنه حكم

عليك بخمس سنوات». قال: «إنه أمر مخزٍ في نظري». ثم أشار بسبابته إلى موضع من الورقة وقال: «انظر ماذا يقول هنا: وقد طلب ثلاث من ضحاياه استعمال الرأفة معه»، هذا يدلك على نظرتهن إليّ وبعد ذلك يحكم عليّ بخمس سنوات. ثم نظر إلى ما قاله عني: «وغد لا قلب له» ـ أنا أطيب الأحياء قلباً ـ «جرثومة اجتماعية، وخطر على الجمهور». وليس يسوءني كثيراً أنه حكم عليّ بخمس سنوات. وإن كنت لا تستطيع أن تحملني على القول بأن هذا لم يكن إسرافاً وحيفاً. ولكني أسألك: هل كان من حقه أن يتحدث عني هكذا؟ لا. لم يكن ذلك من حقه. ولن أصفح عنه ولو عشت مئة سنة».

واحمرّ وجه الرجل المزواج وامتلأت باللهيب عيناه المبتلتان. لقد كان الموضوع يثير المرارة في نفسه. فسألته: «هل لي أن أقرأ هذه الأوراق؟».

قال: «إنما أعطيتها لك من أجل ذلك. إني أريد أن تقرأها يا سيدي. وإذا كنت تستطيع ـ بعد أن تقرأها ـ أن تنكر أني رجل مظلوم قد أُخطىء في حقه، فأنا إذن قد خدعت فيك».

فلما تصفحت القصاصات واحدة بعد الأخرى علمت لماذا كان لمورتمر إلس تلك المعرفة الواسعة بالشواطىء الإنكليزية، فقد كانت هي أماكن صيده. وكانت طريقته أن يذهب إلى أحد تلك الأماكن بعد انتهاء الموسم ويتخذ مسكناً من أحد البيوت الخالية المعدة للإيجار. ومن الظاهر أنه لم يكن يمضي وقت طويل حتى يتعرف إلى إحدى النساء: أرملة أو عانس. ولاحظت أن أعمارهن كانت ما بين الخامسة والثلاثين والخمسين. وقد قررن في المحكمة أنهن لقينه أول مرة على شاطئ البحر، وقد كان غالباً ما يعرض عليهن الزواج في خلال أسبوعين من

ذلك ثم يتزوج بعدها بفترة صغيرة. وكان يقنعهن بطريقة ما أن يأتمنّه على ما ادخرنه من نقود ثم يتركهن بحجة أنه ذاهب إلى لندن في عمل ـ ولا يعود أبداً. ولم يقع نظر إحداهن عليه مرة أخرى ـ فيما عدا واحدة ـ إلا حين دعين للشهادة. وقد كنّ نساء محترمات. إحداهن ابنة طبيب، وأخرى ابنة أحد رجال الدين، وثالثة أرملة تاجر رحال. وكان من بينهن واحدة اشتغلت بالتفصيل في شبابها ثم اعتزلت العمل. وكانت ثرواتهن تتراوح بين خمسمئة جنيه وألف، ولكن مهما كان مقدار الثروة فقد كانت تبتزّ منهن إلى آخر مليم. وقصّ بعضهن قصصاً مؤثرة عن الفاقة الملحة التي تركهن فيها. ولكنهن اعترفن جميعاً أنه كان لهن زوجاً صالحاً. ولم تكتفِ ثلاث منهن بطلب استعمال الرأفة معه، بل قالت إحداهن: إنها مستعدة لقبوله مرة أخرى إذا رغب في العودة.

ولاحظ هو أنني كنت أقرأ تلك الفقرة فقال: «كانت راغبة في أن تشتغل من أجلي، ما في ذلك شك، ولكني قلت: دعِ الماضي يفوت».

وقد كانت المصادفة وحدها هي التي منعت مورتمر إلس من الزواج بالزوجة الثانية عشرة ليكمل (الدستة) التي كانت تخايل له حباً في التناسق. إذ كان قد خطب امرأة تدعى «مس هبارد» كانت تملك ألفين من الجنيهات كما أسرّ لي. وأعلن عن هذا الزواج في الكنيسة فعلاً، ثم رأته إحدى زوجاته القدامى وتحرّت الخبر ثم اتصلت بالبوليس فقبض عليه في اليوم السابق للزواج مباشرة، وقد قال لي عنها: «كانت امرأة سيئة الخلق وقد خدعتني خدعة عظيمة».

ـ كيف فعلت ذلك؟

ـ قابلتها في إيست بورن في أحد أيام ديسمبر وأخبرتني في أثناء

الحديث أنها كانت تشتغل بعمل قبعات للسيدات واعتزلت العمل. وقالت إنها كوّنت بعض الثروة. ولم تقل لي بالضبط كم هي. ولكنها جعلتني أفهم أنها تقدر بنحو ألف وخمسمئة. فلما تزوجتها ـ هل تصدق أنها لم تكن تملك حتى ثلاثمئة؟ وتلك هي التي وشت بي. واعلم أني ما وجهت إليها اللوم قط. وكثير من الرجال كان يغضب ويثور في مثل هذا الموقف حين يجد أنه قد استغفل، ولكني لم أجعلها تلاحظ مجرد استياء مني، بل تركتها دون كلمة واحدة.

ـ ولكنك لم تذهب بدون الثلاثمئة الجنيه كما أرى.

فقال مغضباً: «فلتكن معقولاً يا سيدي. لا أحسبك تعتقد أن الثلاثمئة الجنيه تبقى إلى الأبد. وقد كنت تزوجتها قبل أن تعترف بالحقيقة بأربعة أشهر».

فقلت: «اغفر لي أن أسألك، ولا تظن أن سؤالي يوحي بالتقليل من شأن مزاياك الخاصة، ولكن: لماذا كنّ يتزوجنك؟»

فأجاب وهو بادي الدهشة من سؤالي: «لأني كنت أطلب منهن ذلك».

ـ ولكن ألم تقابل بالرفض أبداً؟

ـ في النادر القليل. وليس أكثر من أربع مرات أو خمس في أثناء أعمالي كلها. ولا شك أني لم أكن أتقدم للزواج إلّا بعد التثبت من الفوز. ولست أقول إنني لم أرجع بالخيبة أحياناً، ولكنك لا تتوقع أن تفوز دائماً. وكثيراً ما قضيت أسابيع كثيرة أتودد إلى امرأة قبل أن أتبيّن أنه لا فائدة في المسألة.

وغرقت في التأملات لحظة ولكني لاحظت ابتسامة عريضة ترتسم

على قسمات وجه صديقي وقال: «إنني أفهم ما تعنيه. وإن مظهري هو الذي يحيرك. ولست تدري ما الذي يحببني إليهن. وهذا نتيجة قراءة الروايات والذهاب إلى دور الصور المتحركة. إنك تظن أن ما تريده المرأة هو رجل من طراز رعاة البقر أو شاب يجيد الرقص أسمر البشرة ملتهب العينين.

إنك تضحكني يا سيدي».

فقلت: «أنا سعيد بذلك».

ـ هل أنت متزوج يا سيدي؟

ـ نعم. ولكن لي زوجة واحدة.

ـ لا تستطيع أن تحكم بواحدة. والحادثة الواحدة لا تتخذ حكماً عاماً. ودعني أسألك: أيّ شيء تعرف عن الكلاب إذا كان كل ما رأيته منها هو كلب «الولف» مثلاً؟

وكان السؤال بلاغياً وأحسست أنه لا يحتاج إلى جواب. وصمت الرجل لحظة ليحدث كلامه أثره في نفسي، ثم مضى يقول: «إنك مخطىء يا سيدي. مخطىء تمام الخطأ. ربما أظهرن ميلاً إلى الشاب الوسيم ولكنهن لن يرغبن في الزواج به. إن الأشكال لا تهمهن».

قلت: «إن دوجلاس جيرولد ـ وقد كان قبيح المنظر بقدر ما كان مليح النكتة ـ كان يقول: إنه لو منح عشر دقائق مع امرأة لاستطاع أن يفوق أجمل الرجال شكلاً في الحاضرين».

قال: «إنهن لا يردن الظرف. ولا يهمهن من الرجل أن يكون قادراً على

الإضحاك، لأنهن يحسبنه غير قادر على الجلد. ولا يردن شخصاً شديد الجمال لأنهن يحسبنه كذلك غير جاد. وهن يردن شخصاً جاداً. الأمن أولاً، ثم الاهتمام. وقد لا أكون جميلاً ولا مسلياً، ولكن صدقني إذا قلت لك إنني أملك ما ترغب فيه كل امرأة: الاتزان. والدليل هو أني جعلت كل واحدة من زوجاتي تشعر بالسعادة».

ـ لا شك أنه مما يؤيد كلامك أن ثلاثاً منهن طلبن استعمال الرأفة معك، وأظهرت إحداهن استعدادها للعودة إليك.

ـ لست تدري إلى أيّ حد أقلقني هذا الأمر طوال مدة وجودي في السجن. وقد توقعت أن أجدها في انتظاري على الباب حين يطلق سراحي، واستحلفت مدير السجن أن يهربني تهريباً بحيث لا تقع عليّ عين أحد!

وراح يمسح قفازه بيده. واستقر نظره مرة أخرى على الخرق الموجود في أحد الأصابع ثم قال: «هذا نتيجة الحياة في البيوت المؤجرة (البنسيونات) يا سيدي. كيف يستطيع الرجل أن يحافظ على نظافة هندامه من غير امرأة تعتني بشؤونه؟ ولقد كان زواجي من الكثرة بحيث لم أعد أستطيع أن أعيش بلا زوجة. هناك رجال لا يحبون أن يتزوجوا ولكني لا أفهمهم. والحق أنك لا تستطيع تأدية شيء على وجهه الأكمل إلا إذا منحته حرارة قلبك. وأنا أحب أن أكون متزوجاً. وليس من العسير عليّ أن أقوم بالأشياء القليلة التي تتطلبها النساء والتي يضيق بها بعض الرجال. فالمرأة كما قلت منذ لحظة تريد الاهتمام بها. ولم يحدث أن خرجت من المنزل بدون أن أقبّل زوجتي ولا إن عدت إليها دون أن أقبلها قبلة أخرى. وكان من النادر أن أعود دون أن أحضر لها شيئاً من الحلوى (الشيكولاته) أو بضع أزهار. ولم أكن أتضجر من نفقات هذه الأشياء».

فقلت مقاطعاً: «على كل حال لقد كنت تنفق من مالها هي».

ـ وماذا في هذا؟ ليس المهم هو المال الذي تدفعه المرأة ثمناً. ولا أحب الفخر، ولكني أقرر عن نفسي أنني زوج صالح.

فرحت أقلب القصاصات التي كانت معي على غير ترتيب ثم قلت له:

ـ سأقول لك ما الذي يدهشني من أمرك. كل أولئك النساء كن من مستوى محترم جداً ومن سن معينة. هادئات محتشمات. ولكنهن جميعاً قد تزوجنك بدون أيّ بحث وبعد تعارف قصير الأمد جداً...

فوضع يده على ذراعي وقال: «هذا هو الذي غاب عنك فهمه يا سيدي. إن في طبيعة النساء شوقاً ملحّاً للزواج. ولا يهمّ إن كنّ صغيرات أم كنّ كبيرات، قصيرات أو طويلات، سمراوات أو شقراوات، فيهن جميعاً شيء واحد مشترك: هو رغبتهن في الزواج. واعلم أني تزوجتهن جميعاً في الكنيسة، فلن تحس المرأة أنها آمنة حقّاً حتى يكون زواجها في الكنيسة، وأنت تقول إني غير جميل المنظر. ولم أحسب قط أنني جميل، ولكني لو كنت برجل واحدة وظهر محدودب لاستطعت أن أجد العدد الكافي من النساء اللواتي يطرن فرحاً حين يملكن فرصة التزوج بي: فليس همهن هو الرجل، بل الزواج ذاته، إنه هوس فيهن ومرض. ولم تكن منهن واحدة لا ترضى بقبولي في المرة الثانية التي أقابلها فيها لولا أنني كنت أحب دائماً أن أستوثق قبل أن أقيّد نفسي. وقد تزوجت إحدى عشرة مرة، إحدى عشرة. لقد كنت أستطيع أن أتزوج ثلاثين مرة لو أردت. وحينما أنظر إلى الفرص التي صادفتني يذهلني ما أخذت به نفسي من الاعتدال».

ـ ولكن ألم تكن تجد في التقدم المستمر للخطبة مدعاة للملل والسأم؟

ـ إن لي يا سيدي عقلاً منطقياً. وقد كان من بواعث سروري دائماً أن أرى كيف تصدر النتائج نفسها عن الأسباب نفسها. فمثلاً: مع المرأة التي لم تتزوج من قبل كنت أتقدم دائماً باعتباري مترملاً. وكان لهذا في نفوسهن عمل السحر. فإن العانس تحب من الرجل أن يعرف بضعة أشياء. ولكني كنت أتقدم إلى الأرملة على اعتبار أني لم أتزوج من قبل. فإن الأرملة تخشى أن يكون الرجل الذي تزوج من قبل قد عرف أكثر مما ينبغي.

ورددت إلى الرجل قصاصاته فطبقها بعناية ووضعها ثانية داخل الكتاب المتسخ. ثم قال: «إنني أعتقد دائماً يا سيدي أنهم أخطؤوا في الحكم عليّ. انظر إلى ما يقولون عني: جرثومة اجتماعية. وغد لا ضمير له. سافل. محتقر. ثم انظر إليّ ودعني أسألك: هل يبدو عليّ أني من هذا الصنف من الناس؟ إنك تحكم على الأخلاق، وقد أخبرتك بكل شيء عن نفسي فأنت تعرفني. فهل تظن أني رجل سوء؟».

فأجبته بما اعتقدت أنه مهارة في التخلص: «إن معرفتي بك ضئيلة جداً...».

فقال إني أتساءل: «هل فكر القاضي، وهل فكر المحلفون وهل فكر الجمهور في المسألة من جانبي أنا؟ لقد ثار بي الجمهور حين أخذت إلى المحكمة حتى اضطر البوليس إلى حمايتي من ثورتهم. فهل فكر أحدهم فيما قمت به أنا لهؤلاء النساء؟».

ـ لقد أخذت أموالهن.

ـ لا شك أني أخذت أموالهن. لقد كان عليّ أن أعيش كما هو من واجب كل إنسان أن يعيش. ولكن ما الذي أعطيتهن في مقابل أموالهن؟.

وكان هذا سؤالاً بلاغياً آخر. ومع أنه نظر إليّ كأنه ينتظر مني جواباً فقد أمسكت لساني. وكنت في الواقع لا أعلم. ثم ارتفع صوته وتكلم بحماسة وعلمت أنه جاد: «سأخبرك بما أعطيتهن في مقابل أموالهن: الأحلام. انظر إلى هذا المكان (وأشار إشارة واسعة ضمت البحر والأفق). وفي إنكلترا مئة مكان مثل هذا. انظر إلى البحر وإلى السماء. انظر إلى تلك البيوت المعدة للإيجار. انظر إلى رصيف الميناء وإلى الساحل.

أوَليست كلها تقبض الصدر؟ إنها ميتة. وقد تبدو لك جميلة حين تقصدها أسبوعاً أو أسبوعين لتستريح من الإجهاد أو تسترد صحتك. ولكن فكر في كل أولئك النساء اللائي يعشن هنا من سنة إلى سنة وليست أمامهن فرصة واحدة، فما يكدن يعرفن أحداً. كل ما لديهن شيء من المال يعشن عليه ولا أكثر من ذلك. ولست أدري إذا كنْت تعلم إلى أيّ حد تكون حياتهن قاسية ومزعجة. حياتهن كهذا الساحل. سير طويل شاق من مدينة إلى مدينة. وحتى الموسم لا يأتي لهن بجديد. فهن خارجات عن نطاقه، أشبه بالموتى. وحينئذ أجيء أنا. ولتعلم أنني لم أتقدم قط إلى امرأة لم تصل إلى الحد الذي تعترف فيه بارتياح أنها بلغت الخامسة والثلاثين. ثم أعطيهن الحب. وكثير منهن لم يكن قد جربن وجود رجل يهتم بهن. وكثير منهن لم يكن قد ذقن طعم الجلوس على مقعد في الظلام وأحاطت بهن يد رجل. فأغيّر حياتهن وأحدث فيها نشاطاً وابتهاجاً. وأمنحهن ثقة جديدة واعتزازاً بأنفسهم. لقد كنّ مهملات على الرف فآتي بخفة وأنزلهن من الرف وأنفض الغبار عنهن. لقد كنت لهن شعاعاً مشرقاً في حياتهن الكابية، فلا غرو أن يقفزن إليّ قفزاً، ولا عجب أن يرغبن في أن أعود إليهن. والوحيدة التي خانتني هي تلك التي كانت تعمل بالقبعات. وقد

أخبرتني أنها كانت أرملة. وظني بها أنها لم تكن قد تزوجت قط. وأنت تقول إني ضحكت عليهن ولكني أدخلت السعادة والإشراق في إحدى عشرة حياة لم تكن إحداهن تحلم برجوعها إليها. تقول: إني وغد سافل؟. إنك مخطىء فأنا محسن كريم. وقد حكموا عليّ بخمس سنوات في السجن. وكان يجب أن يمنحوني شارة الجمعية الإنسانية الملكية!»

ثم أخرج علبة سجائره الفارغة ونظر إليها وهو يهز رأسه أسفاً. فلما ناولته علبتي أخذ منها لفافة دون أن يتكلم. وراقبته وهو يغالب عاطفته ثم يستطرد قائلاً:

ـ وما الذي جنيت من هذا كله؟ المسكن والمعيشة وما يكفيني لشراء سجائري. ولكني لم أتمكن قط من الادخار، والدليل هو أني الآن ـ وقد عدوت الشباب ـ لا أملك نصف جنيه في جيبي. ونظر إليّ من جانب عينيه ثم قال: إنها مهانة هائلة أن أجد نفسي في هذا المركز. لقد عشت حياتي كلها ولم أسأل صديقاً أن يعيرني شيئاً، وإني لأتساءل يا سيدي إذا كان في وسعك أن تمنّ عليَّ بشيء ضئيل. وإنه لمن المهانة لي أن أصنع ذلك. ولكنك إذا استطعت أن تمنحني جنيهاً فإن ذلك يعني عندي كثيراً.

وكنت أحس أنني قد تزودت من كلام الرجل المزواج بما يساوي الجنيه، فدسست يدي في جيبي وأنا أقول: «سأكون بذلك سعيداً جداً».

فنظر إلى الأوراق المالية التي أخرجتها وقال: «لا أحسبك تستطيع أن تجعله اثنين يا سيدي؟»

قلت: «أظن أني أستطيع».

وناولته جنيهين، فتنهد قليلاً وهو يتناولهما ثم قال: «لست تعلم كيف

يكون حال الرجل الذي اعتاد الراحة المنزلية حين لا يدري آين يولي وجهه ليبيت الليل».

قلت: «ولكن هناك شيئاً واحداً أودّ أن تخبرني عنه. ولا تعتقد أنني قليل الثقة بالناس، ولكني أعتقد أن النساء على وجه العموم يرون أن الحكمة القائلة: «طوبى لمن يعطي لا لمن يأخذ» خاصة بجنسنا نحن. فكيف استطعت أن تقنع أولئك النساء المحترمات، اللائي كن دون شك مقتصدات، أن يأتمنّك إلى هذا الحد على كل مدخراتهن؟»

فرأيت ابتسامة عريضة تنتشر على قسمات وجهه وقال:

ـ أتذكر ما قاله شكسبير عن الطمع والطموح؟ هذا هو التفسير. قل لأيّ امرأة إنك ستضاعف رأس مالها في ستة أشهر إذا سلمته لك، وهي لا تملك نفسها من الإسراع في تقديمه إليك. إنه الطمع، مجرد الطمع.

* * *

النقلة من الحساء الساخن إلى المثلجات نقلة حادة تثير الشهية. وكذلك كانت النقلة من هذا الوغد الظريف إلى وقار آل سان كلير والآنسة إليانور. وكنت إذ ذاك أقضي معهم الوقت كل مساء. فما إن تتركه المرأتان حتى يبعث إليَّ بتحيته ويسألني أن أحتسي كأساً من النبيذ المعتق، فإذا انتهينا من ذلك ذهبنا إلى حجرة الاستراحة لنشرب القهوة مع الباقين ونتجاذب أطراف الحديث.

وفي مرة من المرات التي كنت أحتسي فيها قدحاً مع مستر سان كلير قص عليّ قصة الآنسة إليانور وهي قصة مؤسفة. فقد كانت مخطوبة إلى ابن أخ للمسز سان كلير، يشتغل محامياً، وكانت على وشك الاقتران به حين

اكتشفت أن له علاقات غرامية مع ابنة الغسالة التي تقوم بخدمته. واستطرد مستر سان كلير يقول: «كان هذا أمراً مفزعاً. نعم أمر مفزع، ولكن ابنة أختي سلكت الطريق الواحد المعقول، فأعادت إليه خاتم الخطبة ورسائله وصوره وقالت إنها لا يمكن أن تتزوجه أبداً. وتوسلت إليه أن يتزوج الفتاة الصغيرة التي أساء إليها، وقالت إنها ستكون لها أختاً. ولكن قلبها تحطم من أثر الصدمة ولم تعد تبدي اهتماماً بأحد منذ ذلك الحين».

ـ وهل تزوج الفتاة الصغيرة؟

فهز الرجل رأسه وتنهد قائلاً: «لا لشد ما كنا فيه مخدوعين. وقد كان من دواعي الأسى المر لزوجتي العزيزة أن يسلك ابن أخ لها هذا السلوك الشائن. وقد سمعنا بعد حين أنه خطب فتاة صغيرة من الطبقة الراقية ذات مركز عالٍ تملك عشرة آلاف من الجنيهات. فأحسست أن واجبي يقتضي أن أكتب إلى أبيها وأضع الحقيقة أمام ناظريه. ولكنه رد على رسالتي بغاية الوقاحة. وقال: «لأن يكون لزوج ابنته خليلة قبل الزواج أفضل بكثير من أن يكون ذلك بعد الزواج».

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ تزوجا. وهو الآن أحد قضاة المحكمة العليا وزوجته سيدة كبيرة المقام. ولكنا لم نرض أبداً باستقبالهما في منزلنا. وقد اقترحت إليانور عند تولّيه منصبه أن ندعوهما للعشاء، ولكن زوجتي رفضت أن يدنس أعتابنا، وأيدتها أنا في ذلك.

ـ وابنة الغسالة؟

ـ تزوجت رجلاً من طبقتها وافتتحت مطعماً في كانتربري. وقد عملت

ابنة أختي كل ما في وسعها لمساعدتها بما لها من ثروة ضئيلة خاصة بها. مسكينة الآنسة إليانور. ضحت بنفسها على مذبح الأخلاق كما كانت تفهم في عصر فكتوريا. وأخشى أن يكون شعورها بأنها سلكت سلوكاً جميلاً هو كل ما عاد عليها من ذلك.

قلت له: إن الآنسة إليانور امرأة ذات مظهر أخّاذ، ولا بد أنها كانت في صغرها جميلة جداً. وإني لأعجب كيف لم تتزوج رجلاً آخر.

ـ كانت إليانور تعتبر من الفاتنات. وقد أعجب بها المصور ألما تاديما، إلى حد أنه طلب إليها أن تكون نموذجاً يصوره، ولكن طبعاً لم نكن لنسمح بذلك (قال ذلك بلهجة تدل على أن الاقتراح قد ألهب غضبه لخروجه عن الحشمة).

ثم استطرد يقول: «ولكن إليانور لم تبدِ اهتماماً بأحد غير ابن عمها، وهي لا تتحدث عنه أبداً، وقد افترقنا منذ ثلاثين سنة، ولكني واثق أنها ما زالت تحبه، إنها امرأة مخلصة يا سيدي. حياة واحدة وحب واحد. وربما كنت آسف على حرمانها من مسرات الزواج والأمومة، ولكن، لا يسعني إلّا الإعجاب بإخلاصها العميق».

ـ ولكن قلب المرأة عالم غير معروف. والرجل الذي يعتقد أنها تظل أبداً على حالة واحدة رجل فطير الرأي. فطير الرأي أيها العم إدوين. لقد عرفت إليانور سنوات عدة. ذاك أنه لما ماتت أمها أخذتها وهي يتيمة إلى بيتك المريح. وكانت إذ ذاك طفلة. أما الآن فماذا تعرف عنها أيها العم إدوين؟

* * *

لم يمضِ يومان بعد ما أسرّ إليّ مستر سان كلير تلك القصة التي بينت لي سر بقاء الآنسة إليانور عانساً إلى اليوم. حتى جاءتني مديرة الفندق حال عودتي في المساء وقالت والاضطراب يبدو على ملامحها: «مستر سان كلير يبعث إليك تحياته ويسألك: هل في إمكانك الذهاب إليه عند عودتك توّاً؟».

قلت: «بطبيعة الحال. ولكن لماذا؟».

قالت: «هناك اضطراب عظيم. وسيقصون عليك كل شيء».

وطرقت الباب فسمعت صوت مستر سان كلير يقول:

ـ تفضل. تفضل. فلما دخلت وجدت مسز سان كلير مستلقية في الفراش وعلى جبينها منديل مبلل (بالكولونيا) وبيدها زجاجة من النوشادر، والمستر سان كلير واقف أمام المدفأة كأنما يحاول أن يمنع الناس من الاستفادة مما فيها من دفء.

وقال لي: «ينبغي أن أعتذر لك عن طلبي حضورك بهذه الطريقة. ولكنا في غمّ عظيم. ونحسب أنك ربما استطعت أن تلقي لنا ضوءاً على ما حدث».

وكان انزعاجه واضحاً فقلت: «ما الذي حدث؟».

ـ ابنة أختي، الآنسة إليانور، قد فرّت. في الصباح بعثت إلى زوجتي رسالة تقول فيها إن لديها صداعاً حاداً، وقد كانت ترغب حين تصاب بالصداع الحاد أن تترك بمفردها لا يدخل عليها أحد، فلم تذهب إليها زوجتي إلا في العصر لترى ما إذا كان في وسعها عمل شيء للتخفيف

عنها. وإذ الغرفة خاوية. والحقائب قد عُبئت وحقيبة الملابس قد اختفت، وعلى الوسادة رسالة تخبرنا فيها بعملها المتهور.

فقلت: «إني شديد الأسف فلست أدري ماذا أستطيع أن أعمل».

قال: «لقد كنا نظن أنك الرجل الوحيد في إلسوم، الذي تربطها به صلة التعارف». فوصلت عبارته إلى مكمنها مني وقلت: «ولكني لم أفرّ معها. فأنا بالمصادفة رجل متزوج».

قال: «إني أرى أنك لم تفر معها. لقد ظننا لأول وهلة... ولكن إذا لم يكن أنت. فمن هو؟».

قلت: «أنا واثق من أني لا أعرف».

فقالت مسز سان كلير من الفراش: «أعطه الرسالة يا إدوين».

فقال: «لا تتحركي يا جرترود. فالحركة تعيد إليك نوبة اللمباجو». لقد كان لإليانور صداعها الحاد. وكان لمسز سان كلير نوبة لمباجو. فما كان للمستر سان كلير؟ أراهن أن له نوبة نقرس هو الآخر!

وأعطاني الرسالة فقرأت فيها:

«عزيزي العم إدوين والعمة جرترود:

حين تقرآن هذه الرسالة أكون قد ذهبت إلى مكان بعيد. وسأتزوج هذا الصباح من رجل عزيز عليّ جداً. وأعلم أني أخطئ بهروبي هكذا. ولكني كنت أخشى أن تحاولا وضع العراقيل في طريق زواجي. ولما لم يكن في وسع شيء كائناً ما كان أن يغيّر رأيي فقد رأيت أن أوفر كثيراً من المتاعب بعدم إفضائي إليكما بشيء عن الموضوع. وخطيبي رجل شديد العزلة.

ونظراً لطول إقامته في المناطق الاستوائية فإن صحته ليست على ما يرام. وقد رأى من الأنسب أن تكون إجراءات زواجنا خاصة إلى أبعد الحدود، وأرجو أن تسامحاني حين تعلمان بمقدار سعادتي الهائلة، وأرجو أن تسمحا بإرسال متاعي إلى محطة فكتوريا»

بنتكم المحبة إليانور

وقال مستر سان كلير حين أعدت إليه الرسالة: «لن أسامحها أبداً. ولن تدنس أعتابي مرة أخرى يا جروترد! أنا أمنعك من إعادة ذكر إليانور على مسمعي».

وراحت مسز سان كلير تنتحب في صمت.

فقلت: «ألست قاسياً بعض الشيء؟ هل ترى من سبب يمنع الآنسة إليانور من الزواج؟».

فأجاب غاضباً: «في سنها تلك؟ إنه لأمر مضحك، ولسوف نصبح أضحوكة الناس في «ميدان لنستر». أتعرف سنها؟ إنها في الواحدة والخمسين».

فقالت مسز سان كلير بصوتها المنتحب: «الرابعة والخمسين».

وعاد مستر سان كلير يقول: «لقد كانت قرة عيني وكانت كأنها ابنتنا وقد ظلت عانساً سنوات طويلة، وأحسب أنه من غير اللائق بها أن تفكر في الزواج. ثم من هو ذلك الرجل الذي تزوجته؟ إن الخداع هو الذي يغيظ. لا بد أنها كانت تتصل به تحت أعيننا، وليست تدلنا حتى على اسمه، إني أتوقع عواقب سيئة».

وفجأة خطرت في بالي فكرة. ففي ذلك الصباح بعد الإفطار ذهبت لشراء بعض السجائر فقابلت مورتمر إلس عند بائع السجائر، وكنت لم أره منذ أيام.

فقلت: إنك تبدو اليوم أنيقاً.

وكان حذاؤه قد أصلح وبدا لامعاً نظيفاً، وقبعته نظيفة، وكان يرتدي قميصاً أنيقاً وقفازاً جديداً. وحسبت أنه استغل الجنيهين اللذين أعطيتهما له.

فقال: «إني ذاهب اليوم إلى لندن في عمل».

فحييته ومضيت.

وتذكرت أني منذ أسبوعين قد قابلت الآنسة إليانور وعلى بعد خطوات وراءها كان مورتمر إلس. فهل من الممكن أنهما كانا يسيران معاً فلما رأياني تأخر هو عنها قليلاً؟

الآن وضح لي كل شيء.

فقلت: «أظن أنك أخبرتني أن الآنسة إليانور تملك ثروة خاصة؟».

ـ ثروة ضئيلة. ثلاثة آلاف جنيه.

إذ ذاك تيقنت. فنظرت إليهما نظرة حائرة. وفجأة نهضت مسز سان كلير صارخة:

ـ إدوين! إدوين! افرض أنه لم يتزوجها؟.

عند ذلك وضع مستر سان كلير يده على رأسه وارتمى في مقعده في شبه إغماء، وقال في حشرجة: «عند ذلك تقتلني الفضيحة».

فقلت: «لا تخف. إنه سيتزوجها زواجاً صحيحاً. فهو يصنع ذلك دائماً. سيتزوجها في الكنيسة!».

ولم يلقيا بالهما إلى ما كنت أقول، وربما حسبا أني قد أصبت بخبل. ولكني الآن واثق أن مورتمر إلس قد حقق غرضه آخر الأمر، وأن الآنسة إليانور يوركستر المسكينة قد أصبحت زوجته الثانية عشرة!!!

رسالة من امرأة مجهولة

ستيفان زفايج

(1)

كان المؤلف القصصي الشهير (ر) في رحلة قصيرة قضاها متنزهاً بين الجبال. فلما عاد إلى فيينا في الصباح الباكر، اشترى إحدى الصحف في المحطة، وعندما نظر إلى تاريخها تذكر أن اليوم عيد ميلاده «الحادي والأربعين»... لمع هذا الخاطر في رأسه كوميض البرق ولم يكن مسروراً لهذا الخاطر ولا آسفاً عليه. واستأجر عربة، وراح يجيل عينيه سريعاً في الصحيفة وهو في طريقه إلى داره. وأخبره خادمه ـ عند وصوله ـ أن بضعة زوار قد مروا بالمنزل في غيبته، كذلك سأل عنه بعضهم بالتليفون. وكان في انتظاره كومة من الرسائل، فأجال فيها طرفه بغير عناية وفضّ من بينها واحدة أو اثنتين لأنه كان يشعر نحو مرسليهما باهتمام. ولكنه وضع جانباً لفة ضخمة كتب عليها العنوان بخط غريب. وشرب شاي الصباح على مهل في كرسيه المريح، وأتمّ قراءة الصحيفة الصباحية وقرأ بعض المجلات. ثم أشعل سيجاراً وعاد إلى الخطاب...

لقد كان بالكتاب المخطوط أشبه منه بالخطاب، إذ كان يحتوي

بضع عشرات من الأوراق قد كتبت في عجلة بخط نسائي. وراح الرجل برغمه يقلب الظرف مرة أخرى، فلعله أغفل رسالة أخرى كانت فوق هذا الخطاب. ولكنه لم يجد شيئاً: لا إمضاء ولا عنوان في الظرف أو الخطاب. وقال الرجل في نفسه وهو يبدأ قراءة المخطوط: «أمر غريب!».

كانت الكلمات الأولى عنواناً: (إليك... أنت الذي لم تعرفني قط). وحيّره ذلك في أمره، فلم يعد يدري أهذا الخطاب مرسل إليه هو أم إلى كائن خيالي؟ واستيقظ فيه حب الاستطلاع فقرأ:

«بالأمس مات والدي وقد كنت لثلاثة أيام وثلاث ليال خلت، أصارع الموت من أجل تلك الحياة الضئيلة الضعيفة. وبقيت أربعين ساعة متتالية، جالسة بجوار سريره وحمى الإنفلونزا تهز جسده المحترق هزّاً. كنت أضع الكمادات الباردة على جبينه نهاراً وليلاً، وليلاً ونهاراً. وأمسك يديه الضئيلتين المرتعشتين... ولكن قوايَ خارت في الليلة الثالثة وغمضت عيناي دون أن أدري، ولا بد أني نمت ثلاث ساعات أو أربعاً على المقعد الخشبي الصلب، وإذ ذاك أخذه الموت. ها هو ذا ولدي الحبيب مستلقياً في عشه الصغير في الهيئة التي مات عليها، لا شيء تغير منه إلا عيناه قد أغمضتا. عيناه السوداوان الذكيتيان، ويداه متشابكتان فوق صدره. وهذه شموع أربع متقدة: واحدة في كل جانب من جوانب السرير. لست أطيق أن أنظر، ولست أطيق أن أتحرك، فعندما تتراقص الشموع، تتزاحم الظلال يطارد بعضها بعضاً على وجهه وشفتيه المطبقتين. ويبدو كأنما قسمات وجهه قد تحركت وأكاد إخال أنه لم يمت وأنه سيصحو ويتحدث ـ بصوته الصافي ـ فيقول شيئاً ما... جميلاً كالطفولة. ولكني أعلم أنه مات ولن أنظر مرة أخرى لينبعث في نفسي الأمل ثم أفقده مرة أخرى. إنني واثقة.

واثقة أن ولدي قد مات بالأمس. ولم يعد لي الآن في الحياة إلا أنت. أنت فقط. أنت الذي لا تعرفني. أنت الذي تستمتع بحياتك دون أن تبالي بشيء، وتلهو بالناس والأشياء. أنت فقط: أنت الذي لم تعرفني قط والذي ما كففت عن حبه لحظة.

لقد أشعلت شمعة خامسة وها أنذا جالسة إلى المائدة أكتب إليك. لا أستطيع أن أمكث وحيدة مع طفلي الميت دون أن أبوح بما في قلبي لإنسان ما. ولمن أبوح في تلك الساعة الموحشة إن لم يكن لك أنت الذي كنت وما تزال كل شيء في عالمي؟ ربما لم تستطع أن تفهمني. إني أحس برأسي يتثاقل وخدودي تنتفض والألم يوجع أطرافي. وأحسب أنني لا بد قد أصبت بالحمى. فللإنفلونزا في هذا المكان سطوة وحدّة، وربما كنت قد أصبت بالعدوى. ولن أكون آسفة إذا استطعت أن أرافق ولدي بهذه الطريقة بدلاً من وضع حد سريع لحياتي. الظلمة تغشي عيني أحياناً وربما لن أستطيع أن أتم الخطاب، ولكني سأحاول بكل قوتي ـ هذه المرة الوحيدة ـ أن أتحدث إليك ـ يا حبيبي ـ أنت الذي لم تعرفني قط.

إليك أنت وحدك أريد أن أتحدث، لأقص عليك كل شيء للمرة الأولى. أحب أن تعرف حياتي كلها. حياتي التي كانت كلها لك. والتي لم تعرف عنها شيئاً. ولكنك لن تعلم سري حتى أكون قد مت. ولا يكون هناك من تجيبه. لن تعلمه إلا أن تعصف بي الحمى التي تنفض أطرافي بالحرارة والبرد، فتصل بي إلى نهايتي حتماً. أما إذا قدر لي أن أبقى حية فسأمزق هذا الخطاب، وأعود إلى الصمت الذي حافظت عليه أبداً. فإذا وقع هذا الخطاب في يدك فلك أن تعرف من امرأة ميتة تقص عليك قصة حياتها، قصة حياة كانت لك منذ بدايتها إلى آخر لحظاتها الواعية.

وليس لك أن تخشى كلماتي. فلن تحتاج امرأة ميتة إلى شيء: لا الحب ولا العطف ولا السلوى. شيء واحد فقط أسألك إياه: هو أن تؤمن إيماناً كاملاً، بما يدفعني الألم الذي يعصف بقلبي أن أفضي به إليك، صدق كلماتي... فما أطلب منك غير هذا. ولن تكذب أمّ في حديثها وبجوارها فراش موت يرقد فيه طفلها الوحيد.

سأقص عليك حياتي كلها: الحياة التي لم تبدأ حقاً إلا يوم أن لقيتك أول مرة. كل ما أستطيع أن أستعيده في ذاكرتي قبل ذلك غامض مختلط لا معالم فيه، كأنما هو ذكرى قاعة مطمورة قد امتلأت بأشخاص وأشياء مظلمة كئيبة قد علاها التراب، ونسجت حولها خيوط العنكبوت... مكان لا يربط قلبي به شيء.

حينما دخلت في حياتي كنت في الثالثة عشرة وكنت أعيش في المنزل الذي تعيش فيه أنت اليوم. في المنزل نفسه الذي تقرأ فيه الآن هذا الخطاب: آخر أنفاس حياتي. وقد كنت أسكن في الطابق نفسه، إذ إن باب مسكننا كان يواجه باب مسكنك ولا شك أنك قد نسيتنا. لا بد أنك قد نسيت من زمن طويل، أرملة الخبير وهي تنوح وليس على بدنها إلا غلالة رقيقة، وبنتها النحيلة التي لم تكن قد اكتمل نموّها بعد. لقد كنا هادئين جداً، كنا مثالاً لدماثة الخلق ورثاثة الحال وأغلب الظن أنك لم تسمع اسمنا أبداً، فلم تكن لنا لافتة على بابنا الخارجي، ولم يكن أحد يحضر لزيارتنا. ثم إن هذا كان منذ زمن بعيد بعيد: خمسة عشر أو ستة عشر عاماً. من المستحيل أن تتذكر ذلك حتى اليوم. أما أنا... فما أشد تذكري لكل شيء بتفصيلاته الدقيقة.

ما زلت أذكر اليوم والساعة التي سمعت عنك فيها، ورأيتك أول مرة.

لا زلت أذكرها كأنما قد حدثت منذ لحظة. وكيف لا يكون ذلك والحياة قد بدأت منذ تلك اللحظة، وانفتحت الدنيا لي؟

شيئاً من الصبر، ودعني أقص عليك كل شيء من البدء إلى النهاية. لا يأخذك الملل من الاستماع إليّ فترة قصيرة، فما أسأمني أن أحبك طوال حياتي.

كان القوم الذين يقطنون مسكنك ـ قبل مجيئك ـ قوماً مزعجين لا يكفون عن الشجار، ومع أنهم كانوا فقراء إلى درجة البؤس، فقد كانوا يكرهوننا لفقرنا، ذلك أننا كنا نبتعد عنهم ونتجنبهم. كان الرجل مدمناً على الخمر وكان من المعتاد أن يضرب امرأته. وكثيراً ما أيقظنا في جوف الليل على صوت سقوط المقاعد أو تكسر الصحاف. وذات مرة ظل يضربها حتى انبثق منها الدم، فخرجت مهرولة إلى بسطة السلّم وزوجها المخمور وراءها يصيح موجهاً إليها السباب، حتى تجمع الناس جميعاً على السلّم، وهددوا بإبلاغ الشرطة. ولم تكن والدتي ترضى أن يكون لها بهم أيّ اتصال. وقد منعتني أن ألعب مع بناتهم، وقد كنّ ما يفتأن يقابلنني بجفاء وسخرية من أجل ذلك. وإذا لقينني في الطريق وجهن إليّ أنواع السباب. وذات مرة رمينني بكرة صلبة من الثلج فشجت مقدم رأسي. وكان كل من في المنزل يحتقرهم، وقد تنفسنا الصعداء جميعاً حين حدث ما اضطرهم إلى الرحيل ـ وأظن أن الرجل قُبض عليه متهماً بالسرقة، وعلقت لبضعة أيام لافتة (للإيجار) على الباب الرئيس للدار، ثم ما لبثت أن أنزلت. وحدثنا البواب أن المسكن قد أجر لأحد المؤلفين وهو رجل أعزب، لا شك في هدوئه.

وكانت تلك أول مرة أسمع فيها اسمك.

وما هي إلا أيام، حتى كان المسكن قد نظف تنظيفاً تاماً وجاء النقاشون فزينوا جدرانه. ولا شك أنهم أحدثوا كثيراً من الضوضاء، ولكن والدتي كانت مسرورة، وكانت تقول إن هذا سيضع حداً للفوضى التي كانت في المسكن المجاور. ولم أرك في أثناء الانتقال، وكان وضع الأثاث وترتيبه بإشراف خادمك، ذلك الرجل الضئيل الجرم الأبيض الشعر ذو الطباع الرزينة الوقور، الذي كان دون شك من خدم الأسر الطيبة العريقة. كان يدبر كل شيء بدقة ونظام. وكانت شخصيته ذات أثر فينا جميعاً. وكان وجود خادم من هذا النوع الرفيع شيئاً جديداً كل الجدة في مساكن تلك الضاحية. هذا إلى أنه كان جمّ الأدب. ولو أن الخدم العاديين لم يكونوا يستريحون إليه قط. وقد عامل والدتي منذ البدء باحترام، كما يعامل سيدة ذات مقام. وكان دائماً مؤدباً حتى معي، أنا الطفلة الصغيرة. وإذا دعته المناسبات إلى ذكر اسمك فقد كان يظهر نحوك شعوراً بالاحترام العميق كأنه أحد أتباع أسرتك. وقد كنت أحب جون العجوز من أجل هذا، ولو أني كنت أحسده على ما أتيح له من مزية لم تكن لي. ذلك أنه كان يراك ويخدمك على الدوام.

أتعرف لماذا أقص عليك تلك السفاسف؟ أريدك أن تفهم كيف أن شخصيتك منذ اللحظة الأولى كان لها قوة وسيطرة عظيمة عليّ أنا الطفلة الحيية الخجول، فقبل أن أراك رأي العين كانت تحيط برأسك الهالات، وكان يحيط بك جو من الثراء والغرابة والغموض. وإذا كانت حياة الإنسان ضيقة محدودة، فإنه يندفع نحو كل جديد، وقد كنا جميعاً في منزلنا الصغير ننتظر وصولك بفارغ الصبر. أما أنا فقد وصل تطلعي إلى ما يشبه الحمى حين عدت ذات أصيل من المدرسة فوجدت عربة نقل

الأثاث أمام المنزل. وكانت معظم الأشياء الثقيلة قد نقلت إلى أعلى وبقي الحمالون يعالجون الأشياء الصغيرة، ووقفت عند الباب أرقب وأعجب، فقد كان كل شيء تملكه يختلف اختلافاً بيّناً عن كل ما رأيته من قبل. كانت هناك أصنام هندية، وتماثيل إيطالية، وصور كبيرة زاهية الألوان. وأخيراً كانت الكتب، كتب حبيبة جميلة قد بلغت من العدد ما لم أكن أتصور أن تصل إليه. كانت أكواماً بجوار الباب، وقد وقف الخادم ينفض عنها الغبار واحداً إثر واحد بعناية وحرص، ووقفت أنا أنظر إليها بشرهٍ وهي ترتفع بعضها فوق بعض وتزداد عدداً، ولم يطردني خادمك، ولكنه كذلك لم يشجعني على الاقتراب، فبقيت خائفة أن ألمس منها شيئاً، ولكن رغبة ملحة في نفسي كانت تتوق إلى ملامسة جلدها الناعم الجميل، ونظرت في حياء إلى بعض العناوين، وكان كثير منها بالفرنسية والإنكليزية ولغات أخرى لم أكن أعلم منها حرفاً. كم كنت أودّ لو بقيتُ هناك أرقبها الساعات الطوال، ولكن أمي نادتني فكان عليّ أن أدخل.

رحت أفكر فيك طوال ذلك المساء، مع أني لم أكن قد رأيتك حتى تلك اللحظة، كان كل ما أملك بضعة عشر كتاباً من الكتب الرخيصة قد بليت جلدتها العتيقة، وكنت أحبها أكثر من أيّ شيء في العالم. وكنت ما أفتأ أقرؤها وأعيد قراءتها من جديد، فرحت أعجب كيف يكون الرجل الذي يملك كل هاتيك الكتب؟ رجل ثريّ وهو في الوقت ذاته مثقف إلى هذا الحد. وقد أثارت في نفسي تلك الكمية الضخمة من الكتب نوعاً من التقديس السماوي وحاولت أن أرسم لك صورة في نفسي. لا بد أن تكون رجلاً عجوزاً يلبس نظارة وقد تدلت منه لحية طويلة بيضاء كالمدرّس الذي يدرّسنا الجغرافيا. ولكنك أكثر من وجهه رحمة وأجمل منظراً وأنبل

خلقاً. ولست أدري لِمَ كنت على يقين من أنك حسن الطلعة مع أني كنت أتخيلك رجلاً هرماً، وفي تلك الليلة ذاتها رأيتك في أحلامي أول مرة...

وفي اليوم التالي جئت، ولم أستطع أن أرى ولو لمحة من وجهك مع أني كنت أرقب مجيئك. وأثار هذا الإخفاق تطلعي، وأخيراً رأيتك ثالث يوم، وكم كانت دهشتي عظيمة هائلة حين وجدت أنك تختلف اختلافاً بيّناً عن ذلك الأب العجوز الذي صوّره لي خيال الطفولة. لقد تخيلتك رجلاً هرماً طيب القلب يلبس نظارة، ولكنك جئت... وكان مظهرك كما هو اليوم، فأنت من القوم الذين لا تترك السنون فيهم أثراً يذكر. كنت ترتدي حلة جميلة من نسيج بني اللون، وقد صعدت الدرج اثنتين اثنتين بخفة الطفولة المرحة التي تلازم دائماً حركاتك، وكانت قبعتك في يدك فاستطعت أن أرى ـ وأنا في دهشة لا توصف ـ وجهك المشرق الوضاء وشعرك الفتي، وكان جسمك الرشيق المعتدل مفاجأة عنيفة لي.

ولكن الأمر الشديد الغرابة هو أنني في تلك اللحظة الأولى قد تبينت فيك بوضوح، ذلك الأمر الذي أعجب له ويعجب له كل الناس غيري، تبينت أنك شخصان ممتزجان في واحد، إنك شاب ملتهب العاطفة مرح طيب السريرة مغرم بالرياضة والمخاطرة. وفي الوقت ذاته، في فنك، رجل واسع الاطلاع عالي الثقافة رزين، شديد الحساسية بالتبعات.

وأدركت دون وعي، ما أدركه بعد ذلك كل من عرفك من قرب: إنك تعيش حياتين، إحداهما معروفة للناس جميعاً: مكشوفة أمام العالم جميعاً، والأخرى مستورة عن الناس لا يعرفها على حقيقتها إلا أنت. وقد استطعت أنا، الطفلة في الثالثة عشرة، تحت تأثير سحرك القوي أن أضع يدي من اللمحة الأولى على سرّ وجودك: هذا الازدواج والانفصال بين حياتيك.

هل تستطيع أن تفهم الآن كيف كنت تبدو أمامي ـ أنا الطفلة ـ عجيبة من العجائب، وسراً غامضاً شديد الإغراء؟ هذا رجل يتحدث عنه كل إنسان باحترام لأنه يؤلف الكتب، ولأنه مشهور في الدنيا الواسعة: وفجأة يتكشف لي عن طفولة مرحة في شاب لا يزيد عن الخامسة والعشرين! ولا أحتاج أن أقول لك إنك كنت منذ ذلك الحين في عالمي الضيق، الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامي وأن حياتي كلها كانت تدور حول حياتك بالإخلاص الذي يجدر بفتاة في الثالثة عشرة.

جعلت أرقبك وأرقب عاداتك، وأرقب الذين يجيئون لزيارتك، وكان كل هذا يزيد اهتمامي بشخصك بدل أن ينقصه، فقد كان ازدواج طبيعتك يتبدى في اختلاف الزائرين وتنوعهم. فبعضهم كانوا شباناً من زملائك، قليلي العناية بملابسهم، ومع هؤلاء كنت تضحك وتمرح، وبعضهم سيدات كنّ يحضرن في سيارات. ومرة جاء لزيارتك مدير الأوبرا ـ ذلك الرجل العظيم لم أكن رأيته من قبل إلا عن بعد، وعصاه في يده. وكان بعض زوارك فتيات، فتيات صغيرات كن ما يزلن يتلقين دروسهن في المدارس التجارية، وكن يدخلن بابك خفرات مضطربات. كان معظم زوارك من النساء ولم أرَ في ذلك شيئاً، حتى حين شاهدت ذات صباح سيدة ملثمة تخرج من مسكنك، كنت ما أزال في الثالثة عشرة ولم أكن قد نضجت بعد، فلم يدر في خلدي أن هذا التطلع اللاهف الذي أتتبع به كل حركاتك كان في الحقيقة حباً.

ولكني أعرف اليوم بل الساعة التي منحتك فيها قلبي كله وأنا على علم بما أصنع، كنت مع زميلة لي نتنزه، ثم وقفنا عند الباب نتجاذب شتى الأحاديث حين اقتربت منا سيارة وهبطت أنت منها قافزاً بطريقتك

الرشيقة السريعة، التي ما فتئت تسحرني، ولم يبطل سحرها على الأيام، ثم تهيأت للدخول وأحسست بدافع يدفعني أن أفتح لك الباب فصرت بهذا في طريقك حتى كدنا نصطدم، وإذ ذاك نظرت إليّ نظرة رحيمة حانية خالصة الود، كانت أقرب إلى العناق! وابتسمت لي برقة. نعم برقة، وقلت بلطف، بل قلت كأنما تفضي إليّ بسر: أشكرك شكراً عظيماً.

كان هذا كل ما حدث، ولكن منذ تلك اللحظة، منذ الوقت الذي نظرت إليّ فيه بهذا العطف وهذه الرقة أصبحت لك. وقد عرفت بعد ذلك ـ وقبل مضي وقت طويل ـ أن تلك طريقتك في النظر إلى كل امرأة تلتقي بها، كانت نظرة كلها إغراء، نظرة تغمر المرء وتكشفه في آنٍ، نظرة الرجل الذي وُلد ليسلب ألباب النساء، لقد كنت تنظر بهذه الطريقة ـ عن غير قصد ـ إلى كل فتاة تقوم بخدمتك وإلى كل خادم تفتح لك الباب. لم يكن بك أنك تقصد قصداً إلى امتلاك كل أولئك النساء، ولكن دوافعك نحو الجنس كانت ـ دون وعي منك ـ تجعل عينيك تشعان هذا الإشعاع الحار حيثما وقعتا على امرأة.

ولم يكن يدور في خلدي شيء من ذلك وأنا في الثالثة عشرة، فشعرت كأنما كنت أغمر في وقدة من الجمر. وحسبت أن هذه الرقة كانت من أجلي، من أجلي أنا فقط. وفي تلك اللحظة الخاطفة استيقظت المرأة في الفتاة التي لم تكن قد تمّ نضجها بعد: المرأة التي قدر لها أن تكون لك في المستقبل كله.

وسألتني صديقتي: «من هذا؟».

ولم أستطع أول الأمر أن أجيب، وأحسست أن من المستحيل عليَّ أن

أنطق باسمك، فقد أصبح ـ فجأة ـ مقدساً في نفسي، وأصبح سري الذي لا أبوح به. فقلت باضطراب: «أوه. إنه ليس إلا رجلاً يسكن في المنزل».

فقالت زميلتي وفيها شيطنة الطفلة اللجوج: «لماذا إذن توردت وجنتاك بالوهج الأحمر حين نظر إليك؟».

وأحسست أنها تسخر مني، وأنها تحاول استخراج سري، فزاد هذا من توهج خدي وعاملتها بعنف مقصود، فقلت لها غاضبة: «أيتها الغرة الحمقاء!» ووددت لو أني خنقتها خنقاً. فضحكت ضحكة ساخرة وظلت تضحك حتى طفرت الدموع من عيني من الغضب العاجز المكتوم، وتركتها عند الباب وهرولت صاعدة. ولقد أحببتك منذ تلك اللحظة وأنا أعلم جيداً أنك قد تعودت أن تسمع النساء يقلن لك إنهن يحببنك، ولكني على يقين أنه لا توجد واحدة غيري قد أحبتك إلى حد العبودية. وأخلصت لك إخلاص الكلب لسيده، واختصتك وحدك بعاطفتها كما فعلت أنا وما زلت أفعل. لا شيء يمكن أن يعادل الحب الخفيّ الذي تشعر به طفلة، حب لا أمل فيه وكله خضوع، حب صابر ملتهب. حب لا يشبه في شيء ذلك الحب الشره الذي تشعر به المرأة الناضجة: الحب الذي يطلب مقابلاً له دون أن يدري.

لا أحد يستطيع أن يحس بهذا الحب إلا الأطفال الذين في طباعهم عزلة وانفراد. أما الآخرون فإنهم ينفقون أحاسيسهم في المصاحبة ويفسدونها في الأحاديث الخاصة، ويكونون قد سمعوا وقرؤوا كثيراً عن الحب ويعرفون أنه يصيب الناس جميعاً، فيلهون به كما يلهون بلعبة، ويتباهون به كما يتباهى الصبي بلفافته الأولى.

أما أنا فلم تكن لي صديقة أسرّ إليها بذات نفسي، ولم أكن قد تعلمت أو حذرت من قبل، كنت غفلاً من التجريب خلوّاً من الشك، فاندفعت إلى لقاء ما قدر لي، وكانت كل حركة بداخل نفسي وكل شيء يحدث لي يبدو كأنما هو مركز فيك وفي خيالاتي عنك.

كان أبي قد مات منذ زمن بعيد، ولم تكن أمي تستطيع أن تفكر في شيء إلا في متاعبها الخاصة وفي الصعوبات التي تجدها في مواجهة مطالب الحياة بمعاشها الضئيل. فلم يكن في نفسها ما تشارك به أحاسيس فتاة تدلف نحو النضج. وأما زميلاتي في المدرسة وقد أخذن بنصيب من الثقافة ونصيب من فساد الأخلاق، فلم يكن بيني وبينهن انسجام، لأنهن كن ينظرن نظرة سطحية مستهترة إلى ما كنت أراه أرفع العواطف وأسمى الأحاسيس.

وأخيراً فإنه قد تركز فيك أنت كل ما كانت تعجّ به نفسي من انفعالات وأحاسيس لا تحسها في العادة فتاة في مثل سني إلا موزعة متفرقة.

لقد أصبحت بالنسبة إليّ... أيّ تشبيه يستطيع أن يفي بالتعبير عن إحساسي؟

لقد أصبحت لي حياتي كلها. ليس في عالمي شيء أحس بوجوده إلا بمقدار ما يتصل بك. وليس لشيء في نفسي دلالة، إلا أن تكون أنت ماثلاً فيه.

لقد غيّرت كل شيء في حياتي، كنت في المدرسة إلى تلك اللحظة تلميذة عادية لا تمتاز بشيء، ثم على حين فجأة ـ أصبحت الأولى. ورحت أقرأ كتاباً إثر كتاب، لأني كنت أعلم أنك عاشق كتب، وعجبت أمي حين رأتني أتدرب على العزف على البيانو بما يشبه العناد، ذلك أنني تخيلت

أنك لا بد مغرم بالموسيقى، وكنت أرفو ملابسي وأصلحها لتبدو منسقة في عينيك، وكان مما يعذبني أن ميدعة المدرسة القديمة (المفصلة من ميدعة قديمة لأمي) كانت بها رقعة مربعة، كنت أخشى أن تراها فتحتقرني من أجلها. لذلك كنت أجتهد في تغطيتها بحقيبة كتبي حين أصعد السلّم، وكم شعرت بالخوف والانزعاج من أن يقع عليها نظرك! ألا ما أغباني! إنك لم تكد تنظر إليّ مرة أخرى.

ومع ذلك فقد أنفقت أيامي أنتظرك وأرقبك! كان في باب مسكننا ثقب صغير أستطيع منه أن أرى لمحة من بابك. لا تسخر مني يا عزيزي، إنني حتى الآن لا أحس بالخجل من تلك الساعات الطوال التي قضيتها بجانب ذلك الثقب. كانت الردهة باردة كالثلج وكنت أخشى أن أثير وساوس أمي، ولكن هناك كان مكاني، هناك ظللت طوال المساء الطويل أرقبك شهوراً طويلة وسنوات. كتابي في يدي، مرهفة الحس، مشدودة كأوتار الكمان، أرتجف عند أول خطوة تشعر باقترابك، كنتُ دائماً بالقرب منك وكنت دائماً مرهفة متوترة الأعصاب، ولكنك لم تكد تحس بذلك التوتر الدائم إلا كما تحس بلولب ساعتك المشدود وهي في جيبك، هو يسجل لك الزمن بإخلاص، مجاوباً خطواتك بدقاته الخفية التي لا تسمع، فلا تمنحه إلا نظرة عجلى. لحظة واحدة من ملايين اللحظات.

لقد عرفت كل شيء عنك. عاداتك المختلفة، وأربطة الرقبة التي تلبسها، عرفت كل بذلة من ملابسك، وسرعان ما عرفت زوارك الدائمين، وأحسست لهم بالميل أو بالنفور.

منذ أن كنت في الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة وكل لحظة من لحظاتي كانت لك، أيّ الحماقات لم أرتكب؟ لقد قبّلت مقبض الباب

الذي كنت تلمسه بيدك، وحفظت عقب اللفافة الذي ألقيته، وأحسست له بالقداسة لأنه كان بين شفتيك. وفي الليل كم من مرة كنت أنتحل المعاذير لأخرج مهرولة إلى الشارع فأنظر في أي الحجرات قد أضأت النور لأملأ أحاسيسي بوجودك الذي لا تراه عيناي. وفي الأسابيع التي كنت تغيبها كان يبدو لي دائماً أن قلبي يقف عن الخفقان حين كنت أرى خادمك العجوز جون ينزل الدرج حاملاً حقيبة سفرك. كانت الحياة خلوّاً من كل معنى، كنت أظل هائمة لا أدري ماذا أفعل، ويتولاني ملل قاتل وضيق لا يقف عند حد، وكنت آخذ حذري لئلا تفضحني عيناي المحمرتان من الدمع، فتكشفان لأمي اليأس الذي تملّك مشاعري.

وأنا أعلم أن هذا الذي أكتبه ليس إلا سجلاً لسلسلة من السخافات المضحكة، والأوهام التي جالت برأس فتاة مسرفة في الخيال، وكان يجدر بي أن أخجل من ذكرها، ولكن الخجل مع ذلك لا يساورني، فلم يكن قط حبي أطهر ولا أشد اشتعالاً مما كان إذ ذاك.

وفي مقدوري أن أظل ساعات بل أياماً أقصّ عليك كيف كنت أعيش حياتي كلها معك، بينما أنت لا تكاد تعرف شكلي. نعم كنت لا تكاد تعرفني: فما من مرة رأيتك ولم أستطع أن أتقي لقاءك إلا أسرعت مطأطئة الرأس هاربة من نظراتك الملتهبة، أسرعت كالذي يلقي بنفسه في الماء ليتقي الاحتراق بالنار.

أستطيع أن أظل ساعات بل أياماً أحدثك عن تلك السنوات التي نسيتها أنت من زمان طويل، وأبسط أمامك الصفحات التي انطوت من حياتك. ولكن لن أرهقك بدقائق التفصيلات.

شيء واحد فقط من حوادث ذلك العهد، أحب أن أذكره لك، فإنه

أعظم أحداث طفولتي وأحفل تجاربها، ويجب ألا تسخر منه، فمهما بدا لك تافهاً ضئيلاً فقد كان في حياتي ذا دلالة عظيمة وأثر كبير.

لا بد أن ذلك كان يوم أحد، كنتَ أنت في الخارج، وكان خادمك يسحب البسط الثقيلة إلى الداخل بعد أن نفض عنها الغبار عند باب المسكن. وكانت أثقل مما يستطيع الرجل أن يحتمل، فاستجمعت شجاعتي لأعرض عليه أن يقبل مساعدتي ودهش الرجل ولكنه لم يرفض ما عرضته عليه.

هل أستطيع أن أقرّب إلى خيالك الرهبة العنيفة وشعور القداسة الذي استولى عليّ حين خطت قدماي في مسكنك، وحين نظرت إلى عالمك؟ إلى مكتبك الذي كنت تجلس إليه (وكانت عليه بضع زهرات في زهرية زرقاء اللون)، وإلى الصور... وإلى الكتب؟

لقد كان كل حظي من هذا العالم نظرة مختلسة، ولو أن خادمك الطيب القلب لم يكن ليمنعني أن أرى أكثر من ذلك لو أنني خاطرت بسؤاله، لكن تلك النظرة المختلسة كان فيها الكفاية. فقد أشربت روحي جوّك الذي تعيش فيه، ومنحتني زاداً جديداً لأحلامي الدائمة، التي أتخيلك فيها في يقظتك وفي منامك.

كانت تلك اللحظة الخاطفة أسعد لحظات الطفولة كلها. ولقد أردت أن أقصها عليك لعلك ـ وأنت لا تعرف من أنا ـ تستطيع أن تفهم آخر الأمر كيف كانت حياتي معلقة بك. أردت أن أحدثك عن تلك اللحظة السريعة وكذلك عن الساعة المزعجة التي تلتها بعد فترة يسيرة، لقد كان تفكيري فيك ـ كما حدثتك من قبل ـ ينسيني كل ما حولي، فلم أكن ألقي بالاً إلى

ما تعمله أمي أو أولئك الذين يقومون بزيارتنا. ولم أستطع أن ألاحظ أن رجلاً متقدم السن من تجار أنزبروك، وهو من ذوي قربانا البعيدين، كان يكثر المجيء ويطيل المكث، كنت أسرّ حين كان يرافق أمي أحياناً إلى المسرح، لأن هذا كان يتيح لي فرصة الانفراد بنفسي وخواطري، فلا أجد شيئاً يفسد عليّ تفكيري فيك، أو يعطلني عن ترقبك الذي كان متعتي الوحيدة ومتعتي العظمى، ولكن أمي دعتني إليها ذات يوم بلهجة أقرب إلى الرسميات، وقالت إن لديها أمراً خطيراً تحب أن تتحدث فيه إليّ. فامتقع وجهي، وأحسست بقلبي يقفز قفزاً بين جنبي. هل رابها مني شيء؟ هل كشفت أمري بطريق ما؟

كان أول ما جال في خاطري هو أنت، والسر الذي أضمه بين جوانحي، السر الذي يربطني بالحياة. ولكن أمي نفسها كانت في حالة اضطراب. لم يكن من عادتها أن تقبلني، ولكنها في ذلك اليوم قبلتني بحرارة أكثر من مرة، وقربتني منها على الأريكة وأخذت ـ وقد غلب عليها الخجل ـ تتحدث إليّ بتردد. قالت لي إن قريبها ـ وكان أرمل ـ قد تقدم إليها طالباً الزواج منها. وإنها من أجلي أنا قبل كل شيء قد قررت أن تقبل الزواج.

وأخذ مني القلق كل مأخذ، ولم يكن بنفسي إلا خاطر واحد هو أنت. فقلت لها ولساني يتعثر بالكلمات: «وسنبقى هنا. أليس كذلك؟».

ـ كلا. سنذهب إلى أنزبروك حيث يملك فردناند داراً أنيقة.

ولم أسمع أكثر من ذلك. فقد بدا كل شيء أسود أمام ناظري. وعلمت فيما بعد أنني أصبت بإغماء إذ عقدت أصابعي وهي تهتز بعنف واضطراب، ثم ارتميت على الأرض ككتلة من الرصاص. ولا أستطيع أن

أقص عليك كل ما حدث في الأيام التالية، وكيف ثرت ـ وأنا طفلة لا حول لي ـ ثرت دون جدوى على الكبار الذين يملكون القوة والحول.

إن يدي لترتعش حتى هذه اللحظة فلا تقوى على الكتابة حين أتذكر تلك الأيام. لا أستطيع أن أكشف لهم سري الحقيقي، فبدت لهم معارضتي عناداً ومشاكسة. ولم يحدثني أحد في الأمر بعد ذلك وأعد كل شيء من ورائي، وكان معظم العمل يتم في السويعات التي أقضيها في المدرسة، وكلما عدت وجدت شيئاً من الأثاث قد نقل أو بيع. وخيل إليّ أن حياتي تتداعى وتذهب تفاريق. وأخيراً عدت ذات يوم للغداء فوجدت كل الأثاث قد رحل، ولم يبق في الغرف الخاوية إلا بعض الحقائب وسريران صغيران لأمي ولي. وكان علينا أن نبيت هناك ليلة أخرى، ثم نذهب بعد ذلك إلى أنزبروك.

وفي ذلك اليوم الأخير قررت فجأة أنني لا أستطيع أن أعيش دون أن أكون قريبة منك. فقد كنت لي الحياة جميعاً. ومن العسير أن أقول ما الذي كنت أفكر في القيام به إذ ذاك، أو إن كنت في تلك الساعة اليائسة قد بقيت لي القدرة على أيّ تفكير. كانت أمي خارج المنزل فنهضت واقفة كما كنت بملابس المدرسة، وذهبت إلى باب مسكنك، أمن الحق أنني «ذهبت؟». لقد أحسست، وأطرافي متصلبة وأوصالي مضطربة، كما لو كنت أنجذب نحو بابك بمغناطيس.

وكان يدور في خلدي أن أرتمي على قدميك، وأتوسل إليك أن تبقيني لديك كخادم بل كجارية. ولا يسعني إلا أن أتصورك تضحك ساخراً من تلك الفتنة المجنونة من فتاة في الخامسة عشرة. ولكنك حريّ ألا تسخر إذا علمت كيف وقفت هناك على بسطة السلّم، والجو زمهرير قارس،

وقد تجمدت من الخوف، ومع ذلك تدفعني قوة لا تقاوم. وكيف خيل إليّ أن ذراعي ترتفع بذاتها على الرغم مني. واستمرت المعركة لحظات رهيبة خلتها لا تنتهي أبداً. ثم دققت الجرس. ما يزال صوته المصلصل يرن في أذني إلى هذه اللحظة، وتلا صوت الجرس سكون، خيل إليّ فيه أن قلبي قد وقف عن الخفقان، وأن دمي قد جمد في عروقي، وأنا أتسمع وقع خطواتك.

ولكنك لم تحضر. لم يحضر أحد. لا بد أنك في ذلك اليوم كنت في الخارج، وكان جون في الخارج أيضاً. فانسحبت وصوت الجرس ما يزال يرن في أذني، ورجعت إلى مسكننا الفارغ، فرميت نفسي على أحد البسط متعبة مجهودة من هذه الخطوات القليلة كما لو كنت أخوض في الثلج العميق منذ ساعات.

ومع ذلك فقد بقي يلمع وراء هذا التعب المجهد، عزمي على رؤيتك والتحدث إليك قبل أن ينقلوني معهم بعيداً. وأستطيع أن أؤكد لك أن الأشواق الحسية واللهفات الجسدية لم تكن تجيش بنفسي إذ ذاك. كنت جاهلة ما أزال. لا لشيء إلا لأني لم أفكر في شيء إلا فيك أنت. كل رغبتي كانت أن أراك مرة أخرى وأتعلق بك. وقد ظللت أنتظرك تلك الليلة المفزعة. وما إن نامت أمي حتى زحفت إلى الردهة لأتسمع عودتك. وكانت ليلة قاسية البرد من ليالي يناير. وكنت متعبة، والألم يدب في أوصالي، ولم يكن هناك مقعد أستطيع أن أجلس عليه، فاستلقيت على الأرض في وجه التيار القارس الذي يندفع من تحت الباب. استلقيت هناك بملابسي الرقيقة دون غطاء. ولم أرغب في الدفء حتى لا تأخذني سنة من النوم فيفوتني وقع أقدامك. واعترتني

التشنجات. فقد كان البرد القارس والظلام المفزع يخيمان عليّ. وكنت أضطر للنهوض بين الحين والحين، ولكني انتظرت وظللت أنتظر، أنتظرك أنت وأنتظر ما سطر لي من أقدار.

وأخيراً (ولا بد أنها كانت الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً) سمعت باب المنزل يفتح، وسمعت وقع أقدام على السلّم. واختفى إحساس البرد من جسمي واندفعت موجة حارة في أعضائي جميعاً. وفتحت الباب بحذر وفي نيتي أن أجري إليك، وأن ألقي بنفسي على قدميك... ولست أدري أيّ شيء كان يمكن أن أفعله في ساعة جنوني. واقتربت الخطوات ولمعت شمعة. وأمسكت مقبض الباب بيد مرتجفة. هل هذا أنت تصعد السلّم؟

نعم. لقد كنت أنت يا حبيبي. ولكنك لم تكن وحدك. سمعت ضحكة لطيفة، وحفيف ثوب حريري، وصوتك تتكلم همساً. كانت معك امرأة.

لا أستطيع أن أقول لك كيف عشت بقية تلك الليلة. وفي الثامنة من صباح الغد، أخذوني معهم إلى أنزبروك. ولم يكن قد بقي لي من القوة ما أقاوم به.

* * *

في الليلة الفائتة مات ولدي وسأعود وحيدة مرة أخرى إذا قدر لي أن أعيش. وفي الغد سيجيء هنا رجال غرباء أفظاظ متشحون بالسواد، وسيحضرون معهم تابوتاً لولدي الوحيد. وربما جاء بعض الأصدقاء أيضاً ومعهم باقات من الأزهار. ولكن ماذا تجدي الأزهار فوق التابوت؟ وسيتقدمون إليّ ببعض عبارات التعزية. كلمات. كلمات كلمات! أيّ عزاء في الكلمات؟ كل ما أعرفه أنني سأعود وحيدة مرة

أخرى. لا شيء أشد قسوة وشقاء من أن تعيش وحيداً بين الناس. تعلمت ذلك خلال العامين اللذين قضيتهما في أنزبروك من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة. عامان لم يكن يبدو أنهما سينقضيان أبداً. عشت فيهما بين الناس كالسجينة المنبوذة.

كان زوج أمي رجلاً هادئاً رزيناً، وكان شديد العطف عليّ. وكان يبدو على أمي كأنما ترغب في التكفير عن إساءة غير مقصودة، فكانت على استعداد لإجابة رغائبي جميعاً. وكان يسرّ الفتيات اللاتي في سني لو أنني صادقتهن. ولكنني قاومت كل تقرب منهن بتحدّ وغضب، فلم أكن أرغب في أن أكون سعيدة. لم أكن أرغب في أن أعيش راضية وأنت عني بعيد. فدفنت نفسي في دنيا من الظلام. ظلام العذاب والوحدة.

رفضت أن أرتدي الملابس الجديدة الزاهية التي ابتاعوه لي. ورفضت أن أذهب إلى المسارح وإلى الحفلات الموسيقية، وأن أشترك في الرحلات المرحة. ولم أكن أترك البيت إلا نادراً.

هل تصدقني حين أقول لك: إنني لم أكد أعرف عشرة شوارع في تلك المدينة الصغيرة التي عشت فيها عامين؟ كان الحزن لذتي ومتاعي. لفظت المجتمعات وكل أسباب السرور. خنقت مشاعري، وأحسست بلذة مسمومة في ذلك الكبت العنيف الذي أضفته إلى عذاب البعد عنك. بل إني لم أسمح لشيء أن يصرفني عن ذلك الشوق الملح لأن أعيش من أجلك أنت وحدك، فما كان لي من عمل وأنا جالسة بمفردي في المنزل ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم إلا أن أفكر فيك، وأستعيد في مخيلتي بلا انقطاع مئات الذكريات الضئيلة التي تتصل بك، فيتجدد في خاطري كل حركة وكل مرة انتظرتك فيها فأعيد تمثيلها على مسرح نفسي.

لقد ظللت أستعيد في خيالي تلك السنوات التي مرت من طفولتي منذ أن دخلت في حياتي حتى انطبعت في ذاكرتي انطباعاً عميقاً بكل دقائقها وتفاصيلها، فأصبحت أستطيع أن أسترجع أية لحظة من تلك السنوات البعيدة كأنما كانت بالأمس القريب.

وهكذا بقيت حياتي كلها مركزة فيك. وقد ابتعت كتبك جميعها. وإذا ذكر اسمك في صحيفة من الصحف كان يوماً سعيداً في حياتي. هل تصدقني حين أقول لك: إنني ظللت أقرأ كتبك حتى حفظتها عن ظهر قلب؟ فلو أن أحداً أيقظني في جوف الليل وألقى إليّ بجملة مختارة من أحد كتبك لأتممت له دون توقف ولا اضطراب. الآن وقد مضت ثلاث عشرة سنة. كل كلمة من كلماتك كانت لي كتاباً مقدساً.

كان العالم «موجوداً» في إحساسي بمقدار ما يتصل بك.

كنت أقرأ في صحف فيينا أخبار الحفلات الموسيقية و(الليالي الأولى) وأنا أسأل نفسي: أيها يا ترى يعجبك أكثر. وعندما يأتي المساء كنت أصحبك إلى هناك في خيالي وأنا أقول لنفسي: «ها هو ذا الآن يدخل قاعة العرض. ها هو ذا يتخذ مقعده»...

وكان يعاودني هذا الوهم آلاف المرات لا لشيء إلا لأني رأيتك ذات مرة تذهب إلى حفلة موسيقية.

لماذا أقص هذه الأشياء. لماذا أقص تلك المأساة البائسة لطفلة محرومة؟ ولماذا أقصها عليك أنت الذي لم تشعر قط بحبي وأحزاني؟

ولكن هل كنت إذ ذاك ما أزال طفلة؟ لقد كنت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. وكان الشبان يتبعونني بنظراتهم في الطريق. ولكنهم بذلك

كانوا يغضبونني، فقد كان حب أيّ إنسان غيرك، بل مجرد التفكير في حب إنسان آخر، عملية مستحيلة. كما أن مجرد شعوري بأقل اتجاه وجداني إلى سواك كان يعدّ في نظري جريمة.

وقد ظل حبي لك قوياً عنيفاً كما كان من قبل. ولكن طبيعة هذا الحب تغيرت حين أخذ جسمي ينمو وأخذت حواسي تتيقظ، فأصبح أكثر فوراناً وأقرب صلة بأحاسيس الجسد. أصبح حب امرأة ناضجة لا ريب فيه. أصبح المعنى الذي اختفى من أفكار الطفلة الغريرة والفتاة التي دقت جرس بابك، أصبح الآن شوقي الأوحد الذي لا أحس دونه... كنت أريد أن أمنحك نفسي.

كان معارفي يعتقدون فيّ الجبن والخجل. ولكنني كنت قادرة على تحديد هدفي والعمل لبلوغه. كان كياني كله متجهاً إلى غاية واحدة. أن أرجع إلى فيينا، أن أرجع إليك. ولقد جاهدت للسير في سبيلي حتى نجحت رغم ما بدا للآخرين في تلك السبيل من الإبهام والبعد عن المعقول.

كان زوج أمي ميسور الحال، وكان ينظر إليّ كابنته. ولكنني أصررت مع ذلك على أن أعيش من كسبي الخاص. وأخيراً استطعت أن أحصل على موافقته على رجوعي إلى فيينا موظفة في مصنع لصنع الملابس يمتلكه قريب له.

هل أحتاج أن أقول لك؟ إلى أين قادتني قدماي حين وجدت نفسي في أمسية خريفية يغشيها الضباب قد عدت أخيراً... أخيراً إلى فيينا؟

تركت حقيبتي في غرفة (الأمانات) بالمحطة وأسرعت إلى الترام. وما

كان أبطأه! كل وقفة من وقفاته كانت مثار حنق متجدد. وأخيراً وصلت إلى المنزل. وقفز قلبي حين رأيت نوراً في نافذتك. ودبت الحياة فجأة في المدينة التي كانت تبدو من قبل غريبة عني وموحشة. بل دبت الحياة فيّ أنا مرة أخرى حين شعرت أنني قريبة منك يا حلمي الأبدي. وحين أصبحت لا يفصل بينك وبين عيني المتطلعتين إلا ذلك اللوح الزجاجي الرقيق الذي يشع منه الضوء، استطعت أن أنسى أنني في الحقيقة بعيدة عن نفسك أشد البعد، بعيدة كما لو كانت تفصل بيننا الوديان والأنهار والجبال.

ولكن يكفيني أنني أستطيع أن أنظر إلى نافذتك وأديم النظر. ها هو ذا مسكنك، وها هو ذا النور في نافذتك. أنت هنا. وهذا عالمي الحبيب.

لقد ظللت عامين كاملين أحلم بتلك اللحظة، وها هي ذي قد جاءت بعد طول انتظار.

وقفت أمام نافذتك في ذلك المساء الدافىء حتى أطفىء النور. ولم أكن قبل تلك اللحظة لأبحث عن مسكني الخاص. ومساء بعد مساء كنت أعود إلى ذلك المكان. كنت أظل في العمل حتى الساعة السادسة مساءً. وكان العمل شاقاً ولكني كنت أحبه، فقد كان الضجيج في قاعة العرض يغطي الضجيج الذي في قلبي. وما إن يغلق المشغل أبوابه حتى أنفلت إلى المكان المحبوب. كان كل ما أرغب فيه هو أن أراك مرة أخرى وألتقي بك لقاء آخر ولو من بعيد. من مسافة تكفي لأن أشاهد وجهك بعيني.

وأخيراً، بعد أسبوع، لقيتك وكان اللقاء مفاجأة. فقد كنت أراقب نافذتك بينما كنت أنت آتياً من الطريق. وفي لحظة خاطفة عدت طفلة مرة أخرى، طفلة في الثالثة عشرة، وتوردت وجنتاي.

كنت في شوق لأن أنظر في عينيك، ولكني مع ذلك طأطأت رأسي وأسرعت مارة بك في طريقي كالمتبوعة الهاربة. وقد أحسست بالخجل بعد ذلك من الهروب كفتيات المدارس، فقد كنت أعلم ماذا أريد. كنت أريد أن ألقاك. كنت أريد أن تتعرف إليّ بعد كل تلك السنوات المريرة. وأن تجعل بالك إليّ، وتحبني.

وقد بقيت مدة طويلة لا تلحظ وجودي رغم أني اتخذت مكاني أمام منزلك كل ليلة. حتى عندما كان الثلج يتساقط، وعندما كانت رياح فيينا الشتوية الباردة تهب بلا انقطاع. كنت أحياناً أنتظر الساعات الطوال سدًى. وكثيراً ما كنت تغادر المنزل آخر الأمر في صحبة نفر من الأصدقاء. ورأيتك مرتين بصحبة امرأة. وقد كان دليل التيقظ في نفسي والتغير الجديد في أحاسيسي نحوك، تلك الغصة التي كنت أحسها في قلبي حين أرى امرأة غريبة تسير معك، وذراعها في ذراعك. لم يكن شيء من ذلك غريباً عليّ، فقد عرفت منذ الطفولة كثيراً من أمثال أولئك الزائرات حضرن إلى منزلك. ولكن هذا المنظر صار يثير الآن شعوراً بالألم أحسه في جسدي على التحديد. كنت أحس بخليط من العداء والرغبة حين كنت أرى هذا الكشف الواضح لصلة الجسد بينك وبين امرأة أخرى.

وقد دفعني كبرياء الشباب ـ الذي ربما كنت لم أتخلص منه بعد ـ إلى التغيب يوماً عن زورتي المعتادة. ولكن ما كان أفظع خواء هذا اليوم: يوم التحدي.

وفي الليلة التالية كنت أقف في مكاني المعتاد، في ذلة وخضوع، أمام نافذتك، أنتظر كما انتظرت أبداً أمام حياتك المغلقة.

وأخيراً جاءت اللحظة التي لحظت فيها وجودي.

رأيت مقدمك من بعيد، فاستجمعت قواي كلها لأمنع نفسي من الانزواء عن طريقك. وشاءت المصادفة أن يمتلىء الطريق بعربة محملة فكان لا بد أن تمر قريباً جدّاً مني. ووقعت عيناك عليّ دون قصد، وسرى إلى عينيك على الأثر ـ ولو أنك لم تكد تلحظ الاهتمام البالغ الذي كان في نظرتي ـ ذلك التعبير الذي كان من عادتك أن تنظر به إلى النساء. وعادت إليّ الذكرى في لمحة خاطفة، ذكرى تلك النظرة المغرية الملتهبة التي أيقظت بها ـ قبل سنوات ـ الفتاة التي أصبحت فيما بعد الأنثى الناضجة والمرأة المحبة.

استقرت عيناك عليّ لحظة أو لحظتين لم أستطع خلالهما أن أحوّل عيني. ثم مضيت في سبيلك. وكان قلبي يخفق بعنف شديد حتى اضطررت أن أبطىء خطوي. فلما نظرت ورائي بدافع لا يقاوم من حب الاستطلاع، رأيتك ما زلت واقفاً تنظر إليّ. وأقنعتني نظرتك الفاحصة المتسائلة أنك لم تعرفني لا في تلك اللحظة ولا فيما بعد. كيف أصف لك خيبة أملي؟...

كان هذا أول إخفاق أواجهه من هذا النوع. وكان عليّ أن أحتمل ـ لأول مرة ـ ما قدر لي من نصيب في الحياة: وهو أن أظل مجهولة منك أبداً، وأن أموت مجهولة كذلك. آه، كيف أستطيع أن أصور لك خيبة أملي! في السنوات التي قضيتها في أنزبروك، لم أنقطع عن التفكير فيك، وكان لقاؤنا المقبل في فيينا خاطراً لا يبرح ضميري. وكانت أوهامي تأخذ لون الجو النفسي الذي أعيش فيه، فتارة أتصور اللقاء عنيفاً قاسياً، وتارة أتصوره لطيفاً رقيقاً. ولم أترك حالة ممكنة إلا أجلتها في خيالي، وحين أكون حزينة مكتئبة كنت أتخيل أنك ستصدني عنك وأنك ستحتقرني لوضاعة شأني، أو

لقبح شكلي أو لإلحاحي عليك، وتصورت كل لون من ألوان سوء المعاملة وعدم الاهتمام. ولكني لم أتصور قط في أشد حالات كآبتي، وفي أكثر اللحظات إدراكاً بتفاهتي وضآلة قيمتي لم أتصور قط، ولم أجل في خيالي أمر الممكنات جميعاً، وهو أنك لم تشعر بوجودي قط.

إنني أفهم الآن (وقد علمتني أنت!) أن وجه المرأة لا بد أن يكون في نظر الرجل شيئاً شديد التغير. إنه لا يعدو في نظره أن يكون صفحة تنعكس عليها الأحاسيس والانفعالات التي تمضي سريعاً كما تختفي الصورة من المرآة! يستطيع الرجل بسهولة أن ينسى وجه المرأة لأن الزمن يغير كثيراً من أضوائه وظلاله، ولأن الملابس تعطيه في بعض الأحيان صوراً أخرى مختلفة أشد الاختلاف.

وحين تزيد معلومات المرأة تكون أكثر تسليماً (بالأمر الواقع) ولكني ـ وقد كنت ما أزال طفلة ـ لم أكن أستطيع أن أفهم هذا النسيان منك. لقد كنت ملء نفسي كلها منذ عرفتك أول مرة، وقد جعلني هذا أتوهم أنك لا بد قد فكرت فيّ وانتظرت أن أعود!

كيف كان يمكن أن أظل حية لو عرفت أنني في عالمك لا شيء، وأنه لا مكان لي في ذاكرتك؟

كان يبدو جلياً من نظرتك في ذلك المساء أنه لم يكن يصل بين حياتك وحياتي خيط واحد، ولو كان أوهى الخيوط. وكان ذلك أول ما دخلت عالم الحقيقة وأول إرهاص بما تكنّه لي الأقدار.

لم تعرفني، وحين التقت خطواتنا بعد ذلك بيومين ونظرت إليّ بشيء من الود، لم يكن ذلك منك عرفاناً للفتاة التي أحبتك هذا الزمن

الطويل كله، والتي أيقظت فيها أنوثتها، بل كان كل ما في الأمر أنك عرفت وجه الفتاة الجميلة التي التقيت بها في ذلك المكان قبل ليلتين. كان يبدو على ملامحك مزيج من الدهشة والتودد، وكانت على شفتيك ابتسامة مرفرفة، ومررت بي كما صنعت من قبل، وأبطأت من خطوك على الفور كما صنعت من قبل أيضاً. واعتراني الاضطراب والجذل والشوق لأن تحدثني. أحسست أنني قد أصبحت للمرة الأولى كائناً حياً بالنسبة إليك، وأبطأت من خطوي أنا أيضاً، ولم أحاول أن أتجنبك. وفجأة سمعت وقع أقدام خلفي، وعرفت دون أن أنظر ورائي أنني على وشك أن أسمعك توجه إليّ الحديث بصوتك الحبيب. وكاد الانتظار يشلّ حركاتي، وأخذ قلبي يدق بعنف شديد، حتى خُيل إليّ أنه لا بد لي من الوقوف لأستعيد توازني، وإذ ذاك كنت إلى جانبي، وحييتني تحية حارة كما لو كنا معارف قدماء، ولو أنك لم تعرفني حقاً ولم تعرف شيئاً قط عن حياتي، كان في حركاتك وكلماتك طابع البساطة الساحرة التي جعلتني أشعر أنني أستطيع أن أجيبك بغير تردد ولا اضطراب، وسرنا معاً في الطريق، وسألتني إن كنا نستطيع أن نتناول معاً طعام العشاء، ووافقت. وأيّ شيء كنت أستطيع أن أمنعك؟

تعشينا في مطعم صغير لن تتذكر مكانه، فهو بالنسبة إليك واحد من كثير مثله. فمن تراني كنت؟ واحدة من مئات، مخاطرة أخرى. حلقة من سلسلة لا تنتهي. أي شيء حدث تلك الليلة ليبقيني في ذاكرتك؟ لم أتحدث إلا قليلاً، فقد كانت تغمرني سعادة هائلة لشعوري بأنك قريب مني وأنك تتحدث إليّ. ولم أشأ أن أضيع لحظة واحدة في توجيه أسئلة أو عبارات حمقاء.

لن أكف عن توجيه الشكر إليك من أجل تلك الساعة التي قضيناها معاً، فقد جعلتني أحسّ أنك كفاء حبي العارم العنيف. لن أنسى الكياسة التي أبديتها إذ ذاك، لم تكن ثمَّ لهفة زائدة ولا تسرع في إظهار العواطف، ومع ذلك فقد أظهرت منذ اللحظة الأولى من الصداقة والود ما كنتَ جديراً أن تكسب به قلبي إليك ولو لم أكن لك كل تلك المدة الطويلة. هل أستطيع أن أصور لك كيف كان وقع هذا اللقاء الذي حقق أحلام خمس سنوات طويلة من الانتظار؟

وتأخر بنا الوقت فخرجنا من المطعم، وعند الباب سألتني إن كانت بي عجلة أم إن لديّ فسحة من الوقت؟ كيف كنت أستطيع أن أخفي عنك أنني ملكك؟ قلت لك: إن لديّ سعة من الوقت. فسألتني بعد لحظة من التردد إن كنت أستطيع أن أصحبك إلى بيتك لنتمكن من الحديث؟ فقلت بفرحة ظاهرة: «أكون سعيدة بذلك»، وهكذا كشفت عن أحاسيسي بصراحة. ولم يخفف عليّ أن موافقتي السريعة قد أدهشتك. ولست أدري هل كان شعورك إذ ذاك شعوراً بالضيق أم بالسرور، ولكني تبينت بوضوح أنك كنت مدهوشاً، وأنا اليوم أفهم دون شك سر دهشتك، فأنا أعلم الآن أن من عادة المرأة ـ حتى ولو كانت تحس بالرغبة العنيفة في إعطاء نفسها لرجل ـ أن تتظاهر بالإحجام والنفور، وأن تتصنع الخوف والغضب والاشمئزاز، وأن تضطر للموافقة بالتوسلات الحارة والأكاذيب والأيمان المكررة والوعود، وأعلم أن البغايا المحترفات فقط هن اللائي يجبن دعوة كهذه بالموافقة التامة الصريحة. البغايا أو الفتيات السذج اللائي لم ينضجن بعد، ومن أين لك أن تعلم أن موافقتي الصريحة كانت صيحة لشوق سرمدي وحنين قد استمر ألف يوم أو يزيد؟ على أي حال فقد

أثارت حالتي انتباهك وأصبحت تهتم بي. وأحسست من حديثك ونحن سائران معاً أنك تحاول أن تعرف من أيّ نوع أنا من النساء، لقد عرفت في الحال بما لك من سعة الإدراك والدراية العميقة بالعواطف الإنسانية أن في تلك المخلوقة أمراً غير عادي، وأن تلك الفتاة الجميلة الودود تحمل معها سراً ما. واستيقظ تطلعك وحاولت بأسئلتك أن تضع يدك على سري الغامض. ولكن إجاباتي كانت مراوغة فقد فضلت أن أبدو حمقاء على أن أكشف لك سري الدفين.

وذهبنا إلى مسكنك، واغفر لي يا حبيبي أن أقول لك: إنك ربما لا تستطيع أن تفهم كل ما أثاره صعودي معك على ذلك السلّم من انفعالات وأحاسيس، وكيف أني أحسست بالسعادة إحساساً بلغ درجة الجنون، درجة التعذيب بل ما يشبه الاختناق. ولا أكاد أستطيع ـ حتى الآن ـ أن أتذكر تلك اللحظة بغير الدموع، ولكن لم تعد لديّ بقية من دموع. كل شيء في ذلك البيت كان متعمقاً في مشاعري. وكل شيء كان رمزاً لطفولتي وأشواقها، هناك كان الباب الذي انتظرت عودتك من ورائه ألف مرة، والدرج الذي سمعت وقع أقدامك فوقه، والذي رأيتك عنده أول مرة، والثقب الذي راقبت منه غدواتك وروحاتك، وممسحة الباب حيث جثوت ذات مرة، وصوت المفتاح في القفل، ذلك الصوت الذي كان علامة لي على مجيئك، كل طفولتي وعواطفها وأشواقها تكمن في تلك البقعة الصغيرة، هنا كانت حياتي كلها، وقد أحسستها تعجّ من حولي كالعاصفة العظيمة، فقد تحقق كل شيء، وها أنذا أدخل معك، وأنت وأنا معك، إلى منزلك، بل إلى منزلنا. (ربما كانت الطريقة التي أعبر بها سطحية ولكني لا أملك طريقة للتعبير غيرها) تصوّر أن خارج بابك كان

عالم الواقع، العالم اليومي المظلم الذي كان من قبل حياتي كلها، وعند بابك تبتدىء الدنيا المسحورة: دنيا خلقتها أوهام الطفولة، دنيا كدنيا علاء الدين. وفكّر كم من مئات المرات حدقت بعيني الملتهبتين في هذا الباب الذي أدخل منه الآن ورأسي كأنه في التيه. فكّر في ذلك كله، فتستطيع أن تدرك لمحة ـ لا أكثر ـ من وقع تلك اللحظة الهائلة في أعماق ضميري.

وبقيت معك تلك الليلة، ولم أكن أحلم بأن رجلاً قبلك لم يمسّ أو يرى جسدي... وكيف تتصور ذلك وأنا لم أبدِ أية مقاومة، وكبتّ كل أثر للشعور بالخزي خيفة أن أفشي سرّ حبي... وقد كان ذلك حرياً أن يزعجك، فأنت لا ترغب إلا فيما يجيء ويذهب بسهولة ويسر، في شيء خفيف الحمل لا يثقل عاتقك، إنك تخشى أن تتورط في مصاير الآخرين، تحب أن تمنح نفسك للدنيا كلها، ولكن بشرط ألا تضحي بشيء، وأحب ألّا تسيء فهمي حين أقول لك: إنني منحتك نفسي في تلك الليلة عذراء، فليس هذا اتهاماً أوجهه إليك فإنك لم تغوني، لم تخدعني، لم تسلبني عفافي. أنا التي ألقيت نفسي بين ذراعيك ومضيت مختارة للقاء ما كتب لي من أقدار. ليس لي إلا الشكر من أجل جمال تلك الليلة، لقد كنت أحسّ ـ حين كنت أفتح عيني في الظلام وأنت بجانبي ـ أنني لا بد في الجنة، في السماء. وكنت أعجب كيف لا تلمع فوق رأسي النجوم.

لم أشعر قط يا حبيبي بالندم على أني منحتك نفسي في تلك الليلة، فحين كنت نائمة بجوارك، وحين كنت أسمع أنفاسك وأتحسس بدنك، وأشعر بنفسي قريبة منك كل هذا القرب، كنت أذرف الدمع من فرط السعادة.

وخرجت في الصباح المبكر فقد كان عليّ أن أذهب إلى العمل، ثم إني كنت أريد أن أذهب قبل أن يحضر خادمك، وحين تهيأت للخروج

طوقتني بذراعك وجعلت تحدق فيّ مدة طويلة جداً. هل كان طيف من ذكرى قديمة يخايل لك؟ أم إن إشعاع السعادة المشرقة قد جعلني أبدو جميلة في عينيك؟

ثم قبلتني في شفتي وتحركت للخروج فسألتني: «ألا تحبين أن تأخذي معك بضع زهرات؟» وكان هناك أربع زهرات بيض في الزهرية البلورية الزرقاء على مكتبك (وكنت أعرفها من قديم منذ تلك النظرة المختلسة في أيام الطفولة). وقد أعطيتني الزهرات فبقيت أقبلها عدة أيام.

واتفقنا على أن نلتقي في مساء آخر، وكنت في المساء الآخر كذلك تائهة في عالم عجيب حافل بالسرور. ومنحتني ليلة ثالثة. وإذ ذاك أخبرتني أنك تلقيت دعوة للسفر خارج فيينا مدة من الزمن. آه، لكم كنت أكره رحلاتك تلك؟ ووعدتني أن أتلقى منك أخباراً بمجرد أن تعود، ولم أعطك إلا عنواناً محولاً على (شباك البريد) ولم أخبرك باسمي الحقيقي، فقد كنت أحافظ على سري. ومرة أخرى أعطيتني بضع زهرات عند الوداع ـ عند الوداع.

وجعلت أسائل نفسي يوماً بعد يوم طوال شهرين... لا، لن أصف آلامي وأحزاني وأنا أنتظر وأيئس من الانتظار. لست أشكو فأنا أحبك كما أنت: ملتهب العاطفة سريع النسيان، كريماً وغير مخلص، أحبك كما كنت دائماً.

لقد عدت قبل مضي شهرين بمدة طويلة، عرفت ذلك من النور في نافذتك، ولكنك لم تكتب إليّ. والآن ـ وفي ساعاتي الأخيرة ـ لا أملك سطراً واحداً بخط يدك، لا أملك سطراً واحداً منك أنت الذي وهبتك حياتي...

لقد انتظرت انتظار اليأس، ولكنك لم تدعني إليك ولم تكتب ولا كلمة... كلمة واحدة...

إن ولدي الذي مات بالأمس كان ولدك أنت أيضاً... كان ابنك، وليد إحدى تلك الليلات الثلاث... وقد ظللت لك، لك أنت وحدك من ذلك الوقت حتى لحظة مولده... أحسست أني صرت مطهرة ـ حين لمستني أنت ـ فلم يكن من الممكن إذ ذاك ان أتقبل مغازلة رجل آخر، كان ولدنا ذلك العزيز، كان وليد حبي الدائم الذي حفظته وسهرت عليه، وعطفك المسرف الذي يوشك أن يكون غير مقصود. ولدنا... ولدنا الوحيد...

ربما هزتك الدهشة، ربما عجبت مجرد عجب. ستسأل نفسك ما الذي جعلني لا أذكر لك شيئاً عن الوليد. ولماذا ـ وقد صمت كل تلك السنوات ـ أخبرك عنه الآن فقط وهو يرقد رقدته الأخيرة، ويوشك أن يتركني مدى الزمن كله ولا يعود...

ولكن كيف كان يمكن أن أخبرك؟ كنت غريبة عنك، كنت فتاة تبدو متهالكة على قضاء تلك الليلات الثلاث معك، لم تكن لتصدق قط أنني ـ أنا الشريكة المجهولة في ذلك اللقاء الذي حدث مصادفة ـ كنت مخلصة لك أنت الذي لا تعرف الإخلاص، ولم تكن لتقبل الطفل على أنه طفلك أنت، دون أن تثور في نفسك الشكوك، وحتى لو تظاهرت أمامي بأنك تثق بما أقول، فإنك كنت ستظل تعزز الشك الثابت في دخيلة نفسك أنني تحينت الفرصة لإعطاء اسمك ـ وأنت رجل ذو مقام ـ لوليد أتيتُ به من عشيق آخر... كنت ستظل أبداً تشعر بالشكوك، وكان ظل من عدم الثقة سيغشي حياتنا، ولم أكن أنا لأحتمل ذلك. ثم إني أعرفك، وربما كنت أعرفك أكثر مما تعرف نفسك، إنك تحب أن تكون خالياً من الهموم طليق

الفؤاد، مستمتعاً بكل أسباب الراحة، وهذا هو ما تفهمه من الحب، وقد كنت ستشعر بالنفور حين ترى نفسك فجأة في منزلة الوالد ومسؤولاً على غير انتظار، عن مصير طفل، إن الحرية بالنسبة لك هي الحياة، وقد كنت ستشعر أنني قيد لهذه الحرية. وكنت ـ في دخيلة نفسك ـ ستكرهني، ولو كان ذلك على رغم إرادتك الواعية، وربما كنت لا أبدو لك كالحمل الثقيل، وربما كنت لا أصبح مثاراً لكراهيتك إلا ساعة أو لحظة عابرة بين الحين والحين. ولكن كان موضع فخري ألا أثير لك المشاكل ولا أسبب لك الهموم طوال حياتي، وإنه لأفضل لديّ أن أحتمل العبء الثقيل كله بمفردي من أن أكون أنا عبئاً يثقل كاهلك، كنت أريد أن أكون وخدي من بين النساء اللائي منحتهن ودك، التي لا تشعر حين تفكر فيها إلا بالحب والشكران ـ ولكن الحق أنك لم تفكر فيّ قط، لقد نسيتني.

لست أتهمك، صدقني أنني لست أشكو، ويجب أن تسامحني إذا بدا لك في بعض اللحظات بين الحين والحين كما لو كنت أغمس ريشتي في مداد من الضغينة، يجب أن تغفر لي، لأن ولدي، بل ولدنا معاً يرقد رقدة الموت هناك تحت الشموع المتأرجحة، لقد هززت قبضة يدي غيظاً من القدر ودعوته قاتلاً، ذلك أن الحزن قد أخرجني عن طوري، اغفر لي الشكوى، إنني أعلم أنك رحيم عطوف، وأنك دائماً على استعداد لبذل العون، إنك لتساعد أبعد الغرباء عنك لأول كلمة، ولكن شفقتك من طراز فريد، إنها غير ذات حدود، فأيّ إنسان يستطيع أن ينال منها ما يملأ كلتا يديه، ومع ذلك فلا بد أن أعترف أنها شفقة بليدة كسول، فأنت بحاجة للسؤال والتنبيه، إنك تساعد أولئك الذين يطلبون المساعدة، ولكنك تبذل العون بدافع الخجل أو الضعف لا شعوراً بلذة الإعطاء والمساعدة،

ودعني أقل لك بصراحة: إن إخوانك في السعادة أقرب إلى قلبك من البؤساء والمعذبين، وإن من أشق الأمور على نفسي أن أطلب أيّ شيء من أمثالك، بل من أشد أمثالك رحمة.

رأيت ذات مرة من ثقب بابنا في أيام الطفولة كيف عطفت على سائل طرق بابك فأعطيته شيئاً، أعطيته بسخاء وبسرعة وما كاد ينطق، ولكن حركاتك كان يبدو فيها التسرع والضيق كما لو كان غرضك الأول هو التخلص منه، وكان يبدو عليك كأنما كنت تخشى أن تلتقي نظراتك بنظراته. ولم أنسَ قط طريقتك في بذل العون، طريقة رجل هياب ضيق بما يفعل، ولا نسيت تجنبك لكل كلمة شكر.

لذلك لم أتجه إليك في شدتي وأنا أعلم أنك كنت ستمنحني كل ما أطلبه من عون رغم ارتيابك في أن الوليد هو ابنك أنت. كنت ستمنحني إقامة مريحة، وكنت ستمنحني مدداً وافراً من النقود؛ ولكن كنت ستصنع ذلك وأنت نافد الصبر وإن حاولت إخفاء ذلك، وفي نفسك رغبة مستخفية في أن تنفض عنك المتاعب، بل إني لأعتقد أنك كنت ستنصحني بأن أتخلص من الطفل قبل أن يجيء، وكان هذا ما أخشاه فوق كل شيء، لأنني كنت أعلم أنني لن أخالف لك رغبة ما. ولكن الطفل كان بالنسبة إليّ كل شيء. كان طفلك. كان أنت مولوداً من جديد. لا أنت الذي تعيش سعيداً خليّ البال، لا أصل منك إلى شيء، ولا أستطيع الاحتفاظ بك، كان أنت وقد منحت لي، وصرت ملكي لحماً ودماً، من لحمي ودمائي متغلغلاً في أعماق حياتي.

أخيراً استطعت أن أمسكك بيدي بقوة. استطعت أن أحسك دماً يجري في عروقي. استطعت أن أغذوك وأضمك وأقبلك كلما شعرت إليك

بالحنين. وهذا ما جعلني أحس بالسعادة تغمرني حين علمت في أن في أحشائي جنيناً منك. وهذا ما جعلني أخفي هذا السر عنك. فمنذ ذلك الحين لم تكن لتستطيع أن تهرب مني فقد كنت ملكي!

ولكن يجب ألّا تحسب أن شهور الانتظار قد مضت سعيدة كما كنت أحلم بها في نشوتي الأولى. لقد كانت مليئة بالأحزان والهموم، مليئة بالنفور من وضاعة الإنسانية. واشتدت بي الحال حين عجزت عن الاستمرار في العمل في الشهور الأخيرة خشية أن يلحظ حالتي أقرباء زوج أمي فيبعثوا بالأنباء إلى هناك. ولم أشأ أن أطلب من أمي مالاً. فبقيت إلى أن تحين الساعة المحددة، أعيش ببيع بعض اللعب والحلي. وقبل الموعد بأسبوع سرقت الغسالة ما كان بقي لدي من قطع ذهبية ضئيلة، فلم يكن أمامي إلّا الذهاب إلى مستشفى رعاية الطفل. وهناك ولد الطفل. طفلك أنت. في ملجأ البؤس بين المعدمين، المنبوذين الذي لا يرعاهم أحد. كان مكاناً قاتلاً، كل شيء فيه غريب موحش، وكانت كل واحدة منا منعزلة عن الأخرى، بينما كنا مستلقيات في وحدتنا الشاملة تملأ نفوسنا كراهية متبادلة، ولا يجمعنا شيء إلّا الفقر المشترك والبؤس في ذلك (العنبر) المزدحم الذي تشيع في جوّه رائحة الكلوروفورم والدماء وتملأ أرجاءه الصرخات والأنات. والمريض في تلك (العنابر) يفقد كل مميزات شخصيته إلّا تلك البيانات التي تكتب في السجل الطبي المعلق فوق رأسه. أما المستلقي في الفراش فلا يزيد عن قطعة مرتجفة من اللحم هي موضع دراسة...

أرجو أن تغفر لي تحدثي في هذه الشؤون. ولن أتحدث فيها مرة أخرى. لقد لزمت الصمت إحدى عشرة سنة... وعما قليل أعود إلى

الصمت... الصمت الأبدي. وقد اضطررت مرة واحدة على الأقل أن أصرخ بشدة لعلك تعلم كم يكلف الأم الإتيان بوليد. ذلك الوليد الذي كان فرحتي وسروري والذي يرقد الآن في فراش الموت. لقد نسيت تلك الساعات المخيفة. نسيتها في بسماته وفي صوته. نسيتها كلها في سعادتي. والآن وقد مات، عاد العذاب من جديد. ولا يسعني هذه المرة إلا أن أبوح به. ولكني لا أتهمك بل أتهم القدر فقط، القدر الذي يخلق مثل هذا العذاب الذي لا غرض له. لم أشعر بالغضب عليك قط في آلام المخاض العنيفة. لم أحس بأية كراهية لك، ولم أشعر أبداً بالندم على الليلات التي استمتعت فيها بحبك. ولم أكف قط عن حبك ولا عن التسبيح بحمد الساعة التي دخلت فيها عالمي. ولو فرض عليّ أن أعيش هذا الزمن مرة أخرى في الجحيم، وكنت على يقين من ذلك لرضيت مسرورة أن أعيشها لا مرة واحدة فقط بل مرات متعددة.

بالأمس مات ولدنا وأنت لا تدري. ولم يلتقِ شخصه الوضيء الضئيل بك حتى لقاء عابراً. لم يقع نظرك عليه قط. ولقد بقيت مدة طويلة بعد ميلاد طفلنا مختفية عنك، وكان شوقي إليك أقل حدة وعنفاً. فلا شك أن حبي لك ـ وقد صار معي الوليد ـ كان أقل إحراقاً وأهدأ شواظاً. لم أكن أحب أن أوزع نفسي بينك وبينه، فلم أمنح نفسي لك وأنت حيث أنت سعيد بحياتك مستقل عني، بل منحتها للطفل الذي كان بحاجة إليّ، والذي كان عليّ أن أغذوه والذي كنت أستطيع أن أقبله وأدلّله. وبدا لي كأنما القضاء المقدر قد رفع عني بميلاد هذا الطفل الذي هو شخص آخر منك، والذي كان ملكي حقاً. ولم تعد أحاسيسي ـ إلا نادراً ـ تتجه إليك في مسكنك وتهفو إليك. ولكن شيئاً واحداً كنت أحافظ عليه، ففي

يوم ميلادك كنت دائماً أبعث إليك بباقة من الأزهار البيضاء كتلك التي أعطيتنيها بعد ليلة حبنا الأولى.

هل دار بخلدك خلال تلك السنوات العشر أو الإحدى عشرة أن تسأل نفسك: من ذا الذي يرسل إليك الأزهار؟ وهل تذكرت أنك قد أعطيت مثلها ذات مرة لإحدى الفتيات؟ لست أعلم، ولن أعلم أبداً. لقد كان يكفيني أن أرسلها إليك في الظلام الخفي. كان يكفيني مرة كل عام أن أحيي في نفسي ذكرى تلك الساعة.

آه. إنك لم تعرف ولدنا قط، وإني لألوم نفسي اليوم على إخفائه عنك، فإنك كنت ستحبه، إنك لم تره قط وهو يبتسم حين يصحو من نومه ويفتح عينيه، هاتان العينان السوداوان، عيناك أنت. العينان اللتان تنظران بمرح وسرور إليّ وإلى العالم جميعاً، كان وضاء الوجه مشرق القسمات حبيباً إلى النفس، كان فيه كل خفة روحك وإشراق خيالك الحي بقدر ما يمكن أن تظهر في طفل صغير. ولقد كان يمضي ساعات طويلة مستغرقاً يلعب بالأشياء كما تلعب أنت بالحياة. ثم يجنح إلى الجد فيجلس إلى كتبه فترات طويلة. لقد كان أنت تولد من جديد، ويتضح رويداً رويداً ذلك الخليط من المرح والجد، الذي هو أبرز صفاتك. وكنت كلما ازداد شبهاً بك أزداد له حباً. كان ناجحاً في دروسه، وكان يستطيع أن يتحدث بالفرنسية بسهولة ويسر، وكانت دفاتره أنظف دفاتر الفرقة. وما كان ألطفه وأرشقه رجلاً صغيراً! حين كنت آخذه صيفاً إلى شاطىء البحر في «جرادو» كانت النساء تقف لتربت على شعره، وفي «سمرنج» حين كان يتزحلق على الثلج، كان الناس يتابعونه بالنظرات. كان جميلاً لطيفاً جذاباً، وفي العام الماضي حين دخل الكلية في القسم الداخلي كان يرتدي زيّ الكلية الخاص الذي

يشبه ملابس وصفاء القرن الثامن عشر، وفي حزامه خنجر صغير... والآن ها هو ذا يرقد هنا بقميصه وقد بهتت شفتاه وتشابكت يداه.

وستعجب كيف استطعت أن أكفل لابني تلك التربية الغالية التكاليف، وكيف أمكن أن أمنحه مدخلاً إلى تلك الحياة المرحة المشرقة... حياة الموسرين.

يا أعز الناس إليّ: إنني أتحدث إليك من الظلام الخفي، وسأقص عليك الحقيقة غير متأثمة ولا خجلة، فلا تشمئز ولا تلوِ وجهك عني، لقد بعت نفسي. لم أصبح من المتسكعات في الطرق ولا بغيّاً محترفة، ولكني بعت نفسي. كان أصدقائي وعشاقي من الرجال الموسرين، وكنت أبحث عنهم بنفسي في بادىء الأمر، ولكنهم ما لبثوا أن راحوا هم يبحثون عني، فقد كنت امرأة جميلة (هل لاحظت ذلك؟). كل من منحته نفسي أصبح بي مولهاً، وصاروا جميعاً عشاقاً عارفين الجميل. كلهم كانوا يحبونني، إلا أنت. أنا الذي كنت أحبك!

هل تحتقرني الآن لأني أخبرتك بما فعلت؟ أنا على يقين بأنك لن تصنع ذلك، وأعلم أنك ستفهم أن ما فعلته لم يكن إلّا من أجلك، من أجل شخصك الآخر، من أجل ولدك. فقد ذقت في المدة التي بقيتها في المستشفى كل أهوال الفقر. وعلمت أن الذين يداسون بالأقدام في عالم الفقراء هم دائماً الضحايا. لم أستطع أن أحتمل فكرة أن يكون نصيب ولدك، ولدك الحبيب، أن ينشأ في تلك الوهدة، يتنفس هواء الأزقة المسموم، ويعيش وسط الفساد المنتشر في الطرقات. يجب ألّا تتعلم شفتاه الرقيقتان بذاءة الأوشاب، وجلده الناعم الأبيض يجب ألا تهيجه ملابس الفقراء الخشنة القذرة. ينبغي لولدك أن ينال من كل شيء أفضله.

وأن تغدق عليه الأموال، ويستمتع بكل ما في العالم من أسباب السرور. ينبغي أن يتبع خطاك في الحياة، وأن يعيش في المحيط الذي عشت فيه أنت من قبل.

لهذا بعت نفسي، ولم يكن ذلك مني تضحية. فلم يكن لما يسمونه «الشرف» و«العار» أيّ دلالة عندي، لقد كنت أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون مالكاً لجسدي. ولم تكن أنت تحبني، فماذا كان يهم ما أصنعه بهذا الجسد؟

لم تكن ملاطفات رفقائي ولا أشد عواطفهم التهاباً لتصل إلى أعماق نفسي، رغم أن كثيرين منهم كانوا أشخاصاً لا يسعني إلا أن أحترمهم، ورغم أن تفكيري في مصيري المؤلم كان يجعلني أعطف عليهم من أجل حبهم الذي لا جواب له. كان أولئك الرجال جميعاً يعطفون عليّ، وكانوا جميعاً يلاطفونني بل يدللونني، وكانوا يقدمون لي كل مظاهر الاحترام، وقد استعمل أحدهم ـ وهو أرمل متقدم في السن من ذوي الألقاب ـ استعمل كل ما يقدر عليه من نفوذ حتى ضمن دخول ابنك إلى الكلية. كان هذا الرجل يحبني كابنته، وقد ألحّ عليّ بضع مرات أن أتزوجه. وقد كان من الممكن أن أكون اليوم «كونتيس»، وربة قصر جميل في التيرول. وكان يمكن أن أعيش خلية البال إذ كان ولدي سيجد أباً شديد الحب له، وكنت أنا أجد زوجاً هادئاً رزيناً طيب القلب من ذوي المكانة الممتازة. ومع ذلك فقد أصررت على الرفض رغم علمي بأن هذا يسبب له أبلغ الألم. وربما كان ذلك مني حمقاً، فلو قبلت لكنت اليوم أحيا حياة مريحة في مكان ما، وكان ولدي يظل إلى جانبي... لماذا أخفي عنك سبب الرفض؟ لقد رفضت لأني لم أرد أن أقيد نفسي، ووددت أن أظل حرة... من أجلك.

لقد ظللت في أعماق نفسي، وفي شعوري، أحلم حلم الطفولة... ربما ناديتني إليك ذات يوم ولو ساعة واحدة، وانتظاراً لهذه الساعة الواحدة نبذت كل شيء حتى أظل طليقة فأستجيب لندائك. وهل كانت حياتي منذ تيقظ الأنوثة في نفسي إلّا انتظاراً... انتظاراً لمشيئتك؟

وأخيراً جاءت الساعة المنتظرة، ومع ذلك لم تعرف أنها جاءت، ذاك أنك لم تعرفني عندما جاءت. إنك لم تعرفني أبداً أبداً. قابلتك مراراً في المسارح والحفلات الموسيقية وفي أماكن أخرى، وكان قلبي في كل مرة يقفز بين جنبي. ولكنك كنت دائماً تمر بي دون أن تلتفت إليّ. لقد تغيّرت في مظهري فصرت شخصاً آخر. صارت الفتاة الخجول امرأة ناضجة، جميلة فيما يقال، ترتدي أفخر الملابس يحيط بها المعجبون. كيف كان يمكن أن تعرف فيَّ الفتاة التي عرفتها من قبل في مخدعك حيية خجولاً؟

وكان الرجل الذي يرافقني في بعض الأحيان يحييك وهو معي فترد عليه التحية وأنت تنظر إليّ، ولكن نظرتك كانت دائماً نظرة مؤدبة من رجل أجنبي. نظرة فيها الاهتمام وليس فيها المعرفة. نظرة توحي بأن بيننا آماداً بعيدة. بعيدة إلى حد يبعث اليأس.

وأذكر أن نظرة الإنكار تلك قد سببت لي ذات مرة عذاباً عنيفاً رغم أني تعودتها منك... كنت في شرفة من شرفات الأوبرا، وكنت أنت في الشرفة المجاورة، وحين بدأت الموسيقى تعزف خبت الأنوار فلم أعد أستطيع أن أرى وجهك ولكني ظللت أسمع أنفاسك قريبة مني كما كنت أسمعها وأنا معك في غرفتك. وكانت يدك على الحاجز الرقيق الذي يوصل بين الشرفتين، فأحسست بشوق جارف يدعوني أن أنحني فأقبل تلك اليد التي عرفت من قبل لمساتها التي تشف عن الحب.

وأحسست وسط ضجة الأوركسترا العنيفة أن الشوق الجارف يزداد عنفاً، ولم أستطع أن أبعد شفتي عن يدك العزيزة إلّا بجهد شديد. وأخبرت رفيقي في نهاية الفصل الأول أنني أريد أن أغادر المكان، فقد كان عذاباً لنفسي لا يكاد يحتمل أن أراك بجواري في الظلام قريباً مني هذا القرب، بعيداً مع ذلك تفصلني عنك آباد وآباد.

ولكن الفرصة حانت مرة أخرى. مرة واحدة فقط، منذ ما يقرب من سنة. في اليوم الذي يلي عيد ميلادك. كانت كل أحاسيسي وأفكاري متصلة بك، مركزة حولك، وكان شوقي إليك أعظم من أيّ وقت مضى. فقد كنت أعتبر يوم ميلادك عيداً لي. وفي الصباح المبكر ذهبت أشتري الأزهار البيضاء التي أرسلها إليك كل عام، ذكرى لساعة جميلة نسيتها أنت. وفي العصر أخذت ولدي في نزهة وشربنا الشاي معاً ثم ذهبنا في المساء إلى المسرح. كنت أريد أن ينظر إلى هذا اليوم كأنه احتفال سنوي بفتوّته وشبابه وإن لم يكن يعرف سببه.

وقضيت اليوم التالي مع رفيق تلك الأيام وهو شاب غني يدير مصنعاً في «برون» وكنت أعيش معه منذ عامين. كان مولهاً بي، وكان هو أيضاً يريد أن يتزوجني، وقد رفضت طلبه لسبب لم يستطع أن يفهمه رغم أنه كان يثقلني وولدي بالهدايا، وكنت أستحب منه تولهه الساذج الذي يشبه العبودية. ذهبنا معاً إلى أحد المراقص حيث التقينا بجماعة مرحة. وتناولنا العشاء جميعاً في أحد المطاعم في شارع «رنجستراسي». وبين الحديث والضحك اقترحت أن نذهب إلى مرقص. وقد كنت في الأغلب أحس بالنفور من مثل ذلك المكان الذي ينبعث المرح منه من عربدة السكر ـ أكثر مما ينبعث من البشر الحقيقي ـ ولم أكن أذهب إلى هناك إلا نادراً. ولكني

في تلك الليلة أحسست بقوة باطنية تعمل في داخل نفسي، وتملي عليّ أن أقترح هذا الاقتراح الذي قابله الآخرون بالموافقة والترحيب. وأحسست بشوق خفي يبعث فيّ الحياة نشيطة طافرة، كما لو كنت في انتظار تجربة عادية. وأسرع كل واحد ممن معي يظهر تشوقه ـ كالعادة ـ لتنفيذ ما يخطر ببالي، فذهبنا إلى المرقص، وشربنا شيئاً من الشمبانيا، وأحسست فجأة بابتهاج عنيف يقرب من الجنون، لم أشعر به من قبل أبداً وجعلت أشرب زجاجة إثر زجاجة. واشتركت في إحدى الأغاني الجمعية، وأحسست برغبة في الرقص ورقصت خفيفة نشوى. ثم شعرت فجأة كأنما قد قبضت قلبي يد في برودة الثلج أو اضطرام السعير. لقد كنت جالساً مع بعض أصدقائك على المائدة المجاورة، وكنت تنظر إليّ نظرة فيها الإعجاب والاشتهاء. تلك النظرة التي كانت تبعث في نفسي دائماً لذة عارمة لا تطيق وصفها الكلمات. لقد عدت تنظر إليّ لأول مرة منذ عشر سنوات، وقد انطلق في نظرتك كل ما في طبيعتك من موفور الرغبة الجامحة المنبعثة من وراء الشعور. فاعترتني رجفة واضطربت يدي اضطراباً عنيفاً حتى كادت تقع مني زجاجة الشراب. ولم يلحظ رفقائي ـ لحسن الحظ ـ ما أنا فيه من اضطراب، فقد كانت أصوات القهقهة العالية والموسيقى الصاخبة تجعل إدراكهم مضطرباً.

وزاد الوهج في عينيك، فأضرم في أحاسيسي لهباً كالسعير. ولم أستطع أن أتبين: هل عرفتني آخر الأمر أم أهاجت رغباتك امرأة تحسبها غريبة عنك. وتضرجت وجنتاي بالدم، ولم يعد لحديثي ضابط. ولم يكن يسعك إلا أن ترى الأثر الذي أحدثته نظرتك في كياني كله. فأشرت إليّ برأسك إشارة لطيفة تدعوني أن أقابلك لحظة في الغرفة الداخلية. ثم

أديت حسابك واستأذنت من رفاقك وتركت مجلسك بعد أن أشرت إليّ إشارة أخرى أنك ستنتظرني في الخارج. فارتجف بدني كله كما يهتز بدن المحموم من البرد، ولم أعد أستطيع أن أجيب حين يوجّه إليّ الحديث، ولم أعد أستطيع التحكم في دمي المندفع المتدفق.

وشاءت المصادفة في تلك اللحظة أن يصعد إلى المسرح راقصان زنجيان يرقصان رقصة بربرية ويضربان الأرض بكعوبهما الحديدية ويصرخان بأصواتهما الحادة. وانتهزت هذه الفرصة فنهضت واقفة وقلت لصديقي: إنني سأعود في لحظة. وتبعتك.

وقد كنت بانتظاري في الردهة الخارجية، وحين رأيتني أشرق وجهك بالبشر وأسرعت إلى لقائي وعلى شفتيك ابتسامة رقيقة. وكان من الواضح أنك لم تعرفني: لم تعرف الطفلة الصغيرة ولا الفتاة التي لقيتها في الأيام الخالية. وعدت مرة أخرى في نظرك معرفة جديدة. وسألتني بلهجة الواثق مما دلني على أنك ظننتني واحدة من أولئك النسوة اللائي يمكن لأي إنسان أن يشتريهن ليلة، سألتني: «ألديك حقاً ساعة تقضينها معي»؟ فأجبتك: «نعم»، هي «نعم» بذاتها المرتجفة الراضية في آنٍ، التي سمعتها مني وأنا فتاة في الشارع المظلم قبل عشر سنوات أو تزيد.

قلت لي: «أخبريني متى يمكن أن نلتقي»، فقلت لك: «في أيّ وقت تشاء» ذلك أني لم أكن أعرف الإحساس بالعار فيما يختص بك.

وقد بدا عليك شيء من الاستغراب: الاستغراب الذي تفوح منه رائحة مزيج من الشك وحب الاستطلاع، الاستغراب ذاته الذي أبديته من قبل حين أدهشك مني استعدادي السريع للقبول. وسألتني بعد برهة تردد: «الآن؟»، قلت: «نعم. فلنذهب».

وتأهبت أن أجهز معطفي من حجرة المعاطف، ولكني تذكرت أن رفيقي قد وضع أشياءنا معاً، وأن البطاقة معه هو. وكان من المستحيل عليّ أن أرجع لأسأله عنها، وأكثر من ذلك استحالة أن أترك تلك الساعة التي أقضيها معك بعد أن ظللت أنتظرها مدى سنين طوال. ولم أتردد في الاختيار فجمعت حولي أطراف شالي وخرجت في الليل البارد الذي يكتنفه الضباب دون أن أجعل بالي لا إلى المعطف فحسب، بل إلى ذلك الرجل الطيب القلب الذي كنت أعيش معه منذ سنتين. ودون أن أجعل بالي كذلك إلى أنني بهذا العمل قد وضعته في الحقيقة موضع السخرية من إخوانه، إذ يرون حبيبته تغادره لأول إشارة من رجل غريب. وقد كنت في دخيلة نفسي أحس ما في هذا التصرف إزاء صديق كريم من خسة ونكران للجميل، وكنت أعلم أن تلك الحماقة الفظيعة ستبعده مني إلى الأبد، وإنني كنت أدمر حياتي تدميراً، ولكن كم كانت تساوي صداقته، بل كم كانت تساوي حياتي ذاتها بالقياس إلى نعيم تلك الساعة التي أحس فيها مرة أخرى بشفتيك فوق شفتي، وأتسمع فيها مرة أخرى نبرات صوتك الحبيب؟ إنني أستطيع الآن وقد انتهى كل شيء أن أقول لك، لتعرف مقدار حبي: إنني أعتقد أنك لو ناديتني من فراش الموت لوجدت القوة التي تنهض بي لأستجيب للنداء.

وكانت بالباب سيارة فركبناها إلى منزلك. واستطعت أن أسمع صوتك مرة أخرى، وشعرت مرة أخرى باللذة العارمة التي أحسها وأنا قريبة منك وشعرت بالخدر اللذيذ، وبخليط من السرور والحيرة، كما أحسست مرة منذ زمان بعيد. ولست أستطيع أن أصف ذلك كله لك: لا أستطيع ان أصف لك كيف أن مشاعري التي أحسستها قبل عشر سنوات

قد عادت تنبض بالحياة من جديد ونحن نصعد معاً ذلك السلّم الذي أعرف كل درجة فيه. وكيف كنت أعيش في الماضي وفي الحاضر في آنٍ معاً، ووجودي كله ممتزج بك مستمد منك، ولم يكن قد تغير في منزلك إلا القليل: فقد زادت بضع صور، وكثير من الكتب، وقطعة أو قطعتان من قطع الأثاث، ولكنه في مجموعه لم يتغير، وما زال يشيع في نفسي الإحساس بأننا أصدقاء قدماء. وكان على مكتبك الزهرية الزرقاء وفيها الأزهار. أزهاري أنا التي أرسلتها إليك في اليوم السابق، تذكرة بالمرأة التي لم تكن تتذكرها، ولم تكن تعرفها، حتى في تلك اللحظة التي كانت فيها قريبة منك، وحين كنت تمسك يدها، وشفتاك بشفتيها ملتصقتان، ولكني شعرت بالراحة إذ رأيت أزهاري هناك، وإذ رأيت أنك تعتز بشيء قد انبعث مني، بل هو أنفاس ذلك الحب الذي يكنّه ضميري لك.

أخذتني بين ذراعيك. وبقيت معك مرة أخرى طوال ليلة حافلة. ولكنك حتى في تلك اللحظة لم تعرفني. وبينما كنت أشعر في عناقك بلذة عارمة مجنونة، كان يبدو لي بوضوح أن عاطفتك الملتهبة لا تعرف فرقاً بين الحبيبة التي تهبها قلبك وإحدى بنات الهوى تلتقطها من الطريق. وأنه لا غاية لك إلا أن تجد منطلقاً لعواطفك المسرفة.

وقد كنت معي ـ وأنا الغريبة عنك، التي التقطها من أحد المراقص ـ مؤدباً وحار العاطفة في آنٍ، فلم تعاملني باستخفاف، ومع ذلك فقد كان ملء جنبيك لهيب حار مستعبد.

وقد استطعت أن أتبين مرة أخرى وسط دوار السعادة الذي كنت أحس به، ذلك الازدواج في طبيعتك، وهذا الخليط العجيب الذي استعبدتني به منذ أيام طفولتي، خليط من الحب الفكري والحب الحسي. ولم أجد

في أيّ رجل آخر من قبل ما وجدته فيك من استغراق تام في متعة اللحظة الحاضرة. لم أجد غيرك يعطي نفسه كلها في لحظة، حتى إذا انتهت ارتد إلى نسيان لا نهاية له، نسيان لا يليق بالإنسانية.

ولكني أنا أيضاً قد نسيت نفسي. فمن تراني كنت وأنا مستلقية بجانبك في ظلمة الليل؟ هل كنت طفلة الأيام السابقة الملتهبة العواطف؟ أم كنت أم ولدك؟ أم كنت غريبة عنك؟

كل شيء في تلك الليلة العجيبة كان فيه ألفة ساحرة ووجداً ساحراً في آنٍ معاً. وكان في هذا وذلك لذيذاً ممتعاً إلى حدّ يبعث في النفس نوعاً من الخدر الساحر الجميل، فتمنيت لو بقيت تلك المتعة إلى الأبد.

ولكن الصباح جاء. وكان الوقت متأخراً حين نهضنا فطلبت إليّ أن أبقى للإفطار. وفي أثناء تناول الشاي الذي أعدّته ونظمته يد خفية في غرفة المائدة. رحنا نتحدث بهدوء. وكنت تحدثني ـ كما صنعت من قبل ـ بودّ وصراحة. ولم تسألني ـ كما لم تصنع من قبل ـ سؤالاً تنقصه الحصافة، ولم تحاول استطلاع سرّي، فلم تسألني عن اسمي ولا عن المكان الذي أعيش فيه، لقد كنت في نظرك ـ كما كنت من قبل ـ مجرد مخاطرة عرضت لك، امرأة بغير اسم، وساعة من العواطف الحارة والأشواق الملتهبة لا تترك أثراً وراءها بعد أن تنتهي.

ثم أخبرتني أنك تعتزم القيام برحلة طويلة، وأنك ربما أقمت شهرين أو ثلاثة في أفريقيا الشمالية. ورنت تلك الكلمات في جوّ سعادتي كأنها الأجراس التي تنذر بالموت، وسمعت من ورائها كأن هاتفاً يقول: «متروكة أنت. متروكة. متروكة. ومنسية».

وأحسست برغبة تدفعني أن أرتمي على قدميك وأستصرخك: «خذني معك، لعلك تعرفني آخر الأمر بعد كل تلك السنوات الطوال!». ولكني كنت جبانة خجولاً ضعيفة. وكل ما استطعت أن أقوله هو أن «هذا يدعو للأسف» فنظرت إليّ باسماً وقلت: «هل أنت آسفة حقاً؟».

فبقيت لحظة كأنما قد أصابني الخبل ونهضت واقفة وحدقت في وجهك ثم قلت لك: «إن الرجل الذي أحبه يذهب دائماً في رحلة»، ونظرت إلى عينيك وأنا أفكر في نفسي: «الآن. الآن سوف يعرفني!» ولكنك لم تزد على أن ابتسمت لي وقلت مواسياً: «إن الإنسان ليعود بعد وقت». فقلت لك: «نعم إن الإنسان ليعود. ولكنه يكون قد نسي».

ولا بد أنني تحدثت بلهجة تنمّ عن انفعال قويّ، فقد تأثرت نفسك بما قلت، ونهضت أنت أيضاً تنظر إليّ، وفي نظرتك إعجاب وحنوّ. ووضعت يدك على كتفي وقلت لي: «إن الأشياء الجميلة لا تنسى، وأنا لن أنساك» وراحت عيناك تفحصانني بدقة كما لو كنت تريد أن تحتفظ مني في ذاكرتك بصورة لا تزول. وحين أحسست بنظراتك النافذة التي تستكشف كياني كله لم يسعني إلا أن أظن أن قد ارتفعت آخر الأمر تلك اللعنة التي كانت تحجب ناظريك من قبل. وقلت لنفسي، وروحي ترتعش في انتظار هذا الأمل: «سوف يعرفني! سوف يعرفني!».

ولكنك لم تعرفني. لا. لم تعرفني. ولم أكن قط بعيدة عنك بقدر ما كنت في تلك اللحظة. فلو كان الأمر غير ذلك لم تفعل ما فعلته بعد دقائق قليلة. لقد قبلتني. وقبلتني بحرارة. وكان شعري منكثاً، فقمت أعيد تصفيفه. وبينما أنا واقفة أمام المرآة رأيتك ـ وشعرت بالفزع والعار وأنا أراك ـ تضع خلسة ورقتين نقديتين في قفازي. ولم أستطع إلا بجهد أن

أمنع صرخة كادت تخرج من بين شفتي، ولم أستطع إلا بجهد أن أمنع نفسي من لطم وجهك. لقد كنت تدفع لي أجر الليلة التي قضيتها معك. أنا التي أحببتك منذ الطفولة. أنا والدة طفلك. لم أكن في نظرك إلا بغيّاً التقطتها من مرقص. لم يكفك أنك نسيتني فرحت تحقرني وتذلني بأن تنقدني أجراً.

جمعت أشيائي بسرعة حتى أهرب بأسرع ما أستطيع، فقد كان الألم الممض في نفسي أكبر من أن أحتمله. وبحثت عن قبعتي فإذا هي هناك على مكتبك بجوار الزهرية ذات الزهرات البيض: زهراتي أنا. وأحسست برغبة لا تقاوم في أن أبذل محاولة أخيرة لعلها توقظ ذاكرتك فقلت لك: «هل لك في أن تعطيني إحدى زهراتك البيضاء؟»، فقلت لي وأنت تخرجها جميعاً من الزهرية: «دون شك». فعدت أقول: «ولكن ربما كانت قد أهدتها إليك امرأة. امرأة تحبك».

فقلت: «ربما كان ذلك. ولكنني لست أدري. لقد كانت هدية، ولكني لا أعلم من الذي أرسلها. وهذا هو سر اعتزازي الشديد بها».

فقلت لك وأنا أحدق في عينيك: «ربما كانت قد أرسلتها إليك امرأة نسيتها أنت!».

فبدت عليك الدهشة. وزدت أنا في وجهك تحديقاً. وكان في عيني نداء صارخ: «اعرفني. اعرفني آخر الأمر!»، ولكن ابتسامتك رغم ما فيها من الود، لم تكن توحي بأنك عرفتني. وقبلتني مرة أخرى. ولكنك لم تعرفني.

وأسرعت في الخروج، فقد كانت عيناي تمتلئان بالدموع، ولم أكن أريد أن ترى ذلك. واندفعت من الغرفة إلى المدخل الخارجي في عنف،

فكدت أصطدم بجون خادمك العجوز الذي تنحّى عن طريقي بخفة، رغم الارتباك الذي استولى عليه، وفتح الباب لي. وفي تلك اللحظة الخاطفة، حين نظرت إليه من خلال الدموع فاض النور على وجهه فجأة. لقد عرفني الرجل في تلك اللحظة الخاطفة. عرفني الرجل الذي لم يرني منذ أيام الطفولة. أحسست في أعماق نفسي بالشكر للرجل حتى كدت أن أركع أمامه وألثم يديه. ونزعت من القفاز ورقتيك النقديتين اللتين عذبتني بهما عذاباً يشبه وقع السياط، ودفعتهما إليه. فنظر إليّ منزعجاً، فقد فهم مني في تلك اللحظة ـ كما يخيل إليّ ـ ما لم تستطع أن تفهمه أنت طوال حياتك.

لقد كان كل إنسان، كل إنسان شغوفاً بي إلى حد التدليل. وكل إنسان كان يعاملني معاملة كلها رقة وعطف. أما أنت ـ أنت فقط ـ فقد نسيتني. وأنت فقط لم تعرفني أبداً. لقد مات ولدي. بل ولدنا معاً. ولم يعد هناك من أحبه. لا أحد في العالم كله إلا أنت. ولكن من تراك أنت بالنسبة إليّ؟ أنت الذي لم تعرفني أبداً. أبداً. أنت الذي خطوت فوق كياني كما تخطو فوق جدول تعبره. أنت الذي دستني كما تدوس على الصخر. أنت الذي مضيت في سبيلك لا تبالي شيئاً، بينما تركتني أنا أنتظر الأبد كله؟

* * *

لقد تخيلت ـ ذات مرة ـ أنني أستطيع أن أمسك بك فتكون ملء يدي، وظننت أنني قد أمسكت بك فعلاً وامتلكتك ـ وأنت المراوغ ـ في هذا الطفل. ولكنه كان ولدك! فقد انفلت مني خلسة في ظلمة الليل. مضى في رحلة وخلفني في قسوة، لقد نسيني، ولن يعود أبداً. وهأنذا عدت وحيدة مرة أخرى، ولكن الوحدة اليوم أشد ظلمة وأعظم هولاً، ليس معي منك شيء... أيّ شيء. لا ولد، ولا كلمة، ولا سطر بخط يدك، ولا

مكان في ذاكرتك، فلو أن أحداً ذكر اسمي في حضورك لكان بالنسبة إليك اسم إنسانة غريبة عنك. أمن العجيب إذن أن أرحب بالموت ما دمت ميتة في حسابك؟ وأن أرحب بترك هذه الدنيا ما دمت قد تركتني وذهبت عني بعيداً.

إنني يا حبيبي لست ألومك. ولست أحب أن أغشي حياتك المرحة بظلمة آلامي، فلا تخشَ أن أضايقك بعد اليوم، واحتمل مني إذعاني آخر الأمر لتلك الرغبة القوية في أن أكشف دموع قلبي إليك تلك المرة الوحيدة، في اللحظة المريرة التي يستلقي فيها ولدي على فراش الموت. تلك هي المرة الوحيدة التي سأتكلم فيها، وبعدها أرتد إلى الظلام الخفي، وأظل كما كنت من قبل خرساء لا يصلك مني صوت. بل إنك لن تسمع صرخاتي تلك لو بقيت على قيد الحياة. فلن يصل إليك ـ إلا بعد موتي ـ هذا الميراث الذي خلفته لك إنسانة أحبتك، وتولهت في حبك أكثر من كل شخص آخر. إنسانة عاشت حياتها كلها تنتظر نداءك، ولكنك لم توجّه إليها النداء.

ربما ناديتني إليك حيث يصلك هذا التراث. وللمرة الأولى لن أكون وفية لك، لأني لن أسمع نداءك وأنا في غفوة الموت. لن أترك لك صورة ولا تذكاراً، فأنت لم تترك لي شيئاً. وما جدوى أن أترك لك شيئاً وأنت لن تعرفني؟ كذلك كان نصيبي في الحياة، وكذلك سيكون نصيبي في الموت. ولن أدعوك في ساعتي الأخيرة. سأمضي في سبيلي وأدعك جاهلاً اسمي وشخصي. وسيكون الموت لي سهلاً لأنك لن تحسه من بعيد. ولو علمت أن موتي يسبب لك الألم ما استطعت أن أموت!

لا أستطيع أن أكتب أكثر من ذلك. فرأسي يتثاقل والألم يدب في

أوصالي، لقد أصابتني الحمى، ولا بد لي من الاضطجاع. وربما انتهى كل شيء عما قريب، ولعل القدر يكون رفيقاً بي هذه المرة، فلا يجشمني أن أراهم وهم يأخذون مني ولدي... لا أستطيع أن أكتب أكثر من ذلك. وداعاً أيها العزيز وداعاً. كل شكري إليك. لقد كان ما حدث جميلاً رغم كل شيء. سأظل شاكرة لك حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة. وإني لسعيدة بأنني أخبرتك بكل شيء. وستعلم الآن ـ وإن لم تستطع أن تفهم كل شيء ـ كم كنت أحبك. ومع ذلك فلن يكون حبي حملاً على عاتقك. وسيكون عزائي أنني لن أزعجك أو أشغل بالك. لن يتغير شيء في حياتك المرحة المشرقة يا حبيبي، ولن يضيرك موتي. وإن هذا ليريحني.

ولكن من؟ من الذي يرسل إليك الأزهار البيضاء في يوم ميلادك؟ ستكون الزهرية فارغة، ولن تصل إليك بعد اليوم تلك الأنفاس العطرة من حياتي التي كانت تتنفس في غرفتك مرة كل عام. إنني أطلب إليك طلباً واحداً أخيراً، هو الأول والأخير، وأرجو أن تجيبه من أجلي: في كل عيد من أعياد ميلادك ـ وهو يوم يفكر فيه الإنسان في نفسه ـ هات بعض الأزهار البيض وضعها في الزهرية. اصنع ذلك كما يصنعه الآخرون. اصنع قداساً مرة كل عام للحبيبة الميتة ـ إنني لم أعد أؤمن بأيّ شيء ـ . إنني أؤمن بك أنت وحدك، ولا أحب أحداً سواك. وما أرغب أن تمتد حياتي إلا فيك أنت ـ يوماً واحداً فقط كل عام، يوماً أحياه برقة وهدوء، كما كنت أحيا دائماً بالقرب منك. أرجوك أن تعمل ذلك يا عزيزي. أرجوك أن تعمله... هو مطلبي الأول والأخير... شكراً... إنني أحبك، إنني أحبك... وداعاً...

عند ذلك سقط الخطاب من يده المتراخية، وراح يفكر تفكيراً طويلاً عميقاً. نعم. لقد ارتسمت في خاطره ذكريات مبهمة عن طفلة كانت تسكن

جواره، وعن فتاة، وعن امرأة في مرقص. كل شيء غامض مختلط كما يبدو منظر الصخر الكامن في قاع جدول سريع الجريان، منظر مضطرب غير واضح السمات. وراحت الظلال يطارد بعضها بعضاً في مخيلته، ولكنها لا تجتمع في صورة واحدة. وكانت بعض الذكريات في عالم شعوره تنتفض وتتحرك ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يتذكر. وخُيّل إليه أنه لا بد قد رأى تلك الشخوص كلها في الأحلام، وأنه رآها حية شاخصة ورآها مراراً عدة، ولكنها مع ذلك كانت أشباح حلم. واتجهت عيناه إلى الزهرية الزرقاء على المكتب. فإذا هي خاوية. ولم تكن ـ لسنين خلت ـ تخلو في مثل هذا اليوم من الأزهار.

وعرته قشعريرة، إذ خُيل إليه كأنما قد انفتح فجأة باب خفي، ومرّ من خلاله نسيم بارد قارس البرد، يهب من عالم آخر، ويدخل غرفته المغلقة المحمية من الريح، وخطر له خاطر من الموت، وخاطر من الحب الذي لا يموت. وأحس بشيء ما ينبثق في دخيلة نفسه وتحركت في فكره صورة المرأة الميتة، لا جسد لها، وهي مستعرة الأشواق ملتهبة العاطفة، كصوت موسيقى آتية من بعيد.

الدُّخلاء

هكتور هيومنرو الملقب بالساقي (ساكي)

هو كاتب إنكليزي ولد في إكياب ببورما وقضى شطراً من عمره هناك، وأحب الشرق، وفتن بالشعر الفارسي وخاصة رباعيات الخيام، فسمى نفسه باسم ساقي (Saki) أي ساقي الخيام وعرف بهذا اللقب، ولد سنة 1870 وقتل في الحرب العظمى الماضية وله قصص ومؤلفات كثيرة.

في ليلة من ليالي الشتاء وقف رجل في غابة مشتبكة النبات على جبال الكربات الشرقية يراقب ويتسمع، كأنه في انتظار وحش من وحوش الغابة أن يقترب إلى مدى بصره... ثم إلى مدى غدارته.

ولكن الصيد الذي كان يرتقبه بانتباه شديد لم يكن بحال ما من الصيد الذي يبيحه القانون! ذلك أن «ألريش فون جردفتز» كان يذرع الغابة المظلمة بحثاً عن عدو آدمي!

كانت الغابة التي يملكها «جردفتز» واسعة فسيحة الأرجاء مكتظة بوحوش الصيد، ولم يكن طرفها الضيق المنحدر ملحوظاً بكثرة الوحوش

التي تأوي إليه، أو حسن مواقع الصيد فيه، ولكنه ـ دون سائر أملاك صاحبه الواسعة ـ كان أشدها حراسة وأكثرها نصيباً من اهتمامه.

فقد استردها جده قسراً ـ بعد قضية كبيرة ـ من يد جار دنيء كان يستولي عليها بغير حق، ولكن الفريق الذي انتزعت منه لم يرضَ قط بقرار المحكمة. وظلت العلاقات تسوء بين الأسرتين مدى ثلاثة أجيال، بسبب السطو على الغابة وسرقة الصيد منها وما شابه ذلك من الدنايا.

ثم أصبحت الخصومة العائلية خصومة شخصية منذ أصبح «ألريش» سيد العائلة وصار يحس ملء قلبه بالكراهية والبغضاء «لجورج زناييم» وارث الخصومة، وسارق الصيد الذي لا يفتأ يغير على البقعة المختلف عليها. وربما كان من الممكن أن تنطفىء تلك الخصومة أو تصل إلى الصلح، لو لم تقف أحقاد الرجلين الشخصية في الطريق. ففي طفولتهما كان كل منهما يتعطش لدماء الآخر. وفي رجولتهما كان كل يدعو الله أن ينزل بالآخر المصائب والآلام.

وفي تلك الليلة العاصفة كان «ألريش» قد جمع رجاله ليراقبوا الغابة المظلمة ـ لا بحثاً عن ذوات الأربع من الوحوش ـ ولكن ترقباً للّصوص الذين كان يتوقع دخولهم من طرف الغاب.

وكانت الغزلان التي تأوي عادة إلى بعض الأشجار تحتمي بها من الريح العاصف، تجري كأنما تساق سوقاً. وكان القلق والاضطراب يسودان المخلوقات التي تعودت أن تنام في ظلام الليل. ما من شك في أن شيئاً مثيراً قد دخل إلى الغابة... ويستطيع ألريش أن يحزر من أيّ أرجائها استطاع أن يتسلل.

وقد ترك رجاله الذين وضعهم في كمين على قمة التل، ودلف وحيداً إلى المنحدرات الزلقة التي تكتنفها الأعشاب المشتبكة، وهو يرقب من بين جذوع الأشجار، وينصت وسط صرير الريح في الأغصان المرتعشة، لعل سمعه أو بصره يقع على قطاع الطريق.

لو أنه في تلك الليلة القاسية، في ذلك المكان المظلم المنعزل، قد لقي «جورج زناييم» وجهاً لوجه بغير شاهد ولا رقيب...! تلك كانت الأمنية التي تسيطر على أفكاره.

وبينما هو يستدير حول جذع شجرة ضخمة، إذ به وجهاً لوجه أمام الرجل الذي يبحث عنه.

وقف الخصمان يحدق كل منهما في الآخر فترة طويلة بصمت، وكان كلاهما يحمل غدارته في يده، وحقده في قلبه، ونية القتل تسيطر على أفكاره، لقد سنحت الفرصة أخيراً لتحقيق نوازع العمر بأكمله، ولكن الشخص الذي ربي في قيود المدنية لا يستطيع أن يحمل أعصابه على قتل جاره هكذا في هدوء وبغير كلمة مغضبة، إلا أن يكون قد أساء إلى شرفه أو بيته.

وقبل أن تنتهي لحظة الصمت إلى عمل وحركة، حدث من حركات الطبيعة ما أفزعهما معاً وهدد كيانهما، فقد صرخت العاصفة صرخة مدوية أعقبها صوت تحطيم عنيف فوق رأسيهما. وقبل أن يتمكنا من القفز بعيداً عن مركز الخطر، كانت كتلة من الشجرة المحطمة قد هوت عليهما هادرة كالرعد، ووجد ألريش نفسه ممدداً على الأرض وقد خدرت تحته إحدى ذراعيه، بينما اشتبكت الأخرى في فرع متشابك الأغصان، عاجزة عن

التخلص، وقد أنقذه حذاء الصيد الثقيل من تحطم قدميه. ولكن مهما خفت إصابته عما كان يتوقع، فإنه ولا شك عاجز عن الحركة في موقفه الراهن حتى يحضر أحد لنجدته.

وكانت الأغصان في أثناء سقوطها قد سلخت جلد وجهه، فاحتاج أن ينفض عن جفنيه بضع قطرات من الدم حتى يستطيع أن يدرك ما حوله من أحداث.

وكان جورج زناييم على مقربة منه بحيث لو شاء ـ في الأحوال العادية ـ لاستطاع أن يلمس جسمه المضطرب الذي يصارع الأغصان الملتفة حوله. ولكن جورج كان مثله عاجزاً عن تخليص نفسه، فقد تراكمت حولهما الأغصان المحطمة والجذوع المتناثرة. وقد سر ألريش أنه لم يزل حياً، بينما أثار في نفسه منظر غريمه شهوة التحرش، فجرى على لسانه خلط عجيب من الشكر لله واللعنات لعدوه.

أما جورج الذي كاد يعميه الدم النازف من جفنيه فقد وقف عن الصراع لحظة وراح يستمع إلى ألريش، ثم ضحك ضحكة قصيرة عالية وصاح:

ـ أنت إذن لم تمت كما كنت تستحق. ولكنك حبيس على أيّ حال، ومقيد بشدة. يا لها من نكتة بارعة! ألريش فون جردفتز يقع في حبائل الشرك بداخل غابته المسروقة. ذلك قصاص عادل.

وضحك مرة أخرى ضحكة وحشية ساخرة.

فجاوبه ألريش: «إنني مقيد في غابتي الخاصة. وعندما يحضر رجالي لفك قيودي فربما تمنيت أنك كنت في وضع أفضل من ضبطك وأنت تسرق من أرض جارك. يا للعار!».

فصمت جورج برهة ثم قال بهدوء:

أأنت على يقين من أن رجالك سيجدون فيك ما تفك قيوده؟ إن لي رجالاً في الغابة أيضاً. وهم ورائي على مقربة مني، وسيجيئون أولاً فيخلصوني وإذ ذاك لن يجدوا جهداً كبيراً في إلقاء ذلك الحطام المتناثر على أمّ رأسك، حتى إذا جاء رجالك وجدوك ميتاً تحت شجرة هاوية، وسأرسل من باب «الشكليات» تعزية لأسرتك!.

فقال ألريش بحدة: «فكرة مفيدة»، إن لدى رجالي أوامر بأن يتبعوني بعد عشر دقائق وقد مرّ منها ما يقرب من سبع حتى الآن، فإذا جاء رجالي وأخرجوني من تحت الأنقاض، فسأتذكر فكرتك. ولكن، نظراً لأنك لقيت حتفك وأنت تسرق في أرضي، فلا أجد من الصواب أن أرسل أية تعزية إلى أهلك»!

فصاح جورج: «حسناً، حسناً، إننا نقتتل في معركتنا حتى الموت، أنا وأنت ورجالنا، دون أن يدخل بيننا الدخلاء، لك الموت وعليك اللعنة يا ألريش فون جردفتز».

ـ وعليك مثل ذلك يا جورج زناييم، يا سارق الصيد ومقتحم الغابات.

كان كل منهما يتكلم بمرارة من يتوقع الهزيمة، فقد كان كلاهما يعلم أن رجاله ربما أبطؤوا في تفقده، وكان سبق أيّ فريق للآخر مسألة متروكة للمصادفة وحدها، وقد كفّ كلاهما عن محاولة التخلص من ركام الأنقاض التي طرحته على الأرض، فقد كانت محاولة عقيمة، واكتفى ألريش بمحاولة تقريب ذراعه الحرة نوعاً ما من جيب سترته الخارجي ليخرج منه زجاجة من النبيذ، وحتى بعد أن استطاع ذلك بالجهد والمشقة، وجد نفسه بحاجة إلى جهد آخر لفتح الزجاجة، ثم لإفراغ جرعة منها في حلقه.

لم يكن ما نزل من الثلج إلا كمية ضئيلة، فكان ما تعرّض له الرجلان من البرد قليلاً نسبياً، ومع ذلك فإن جرعة النبيذ قد سرت بالدفء والحياة في جسم الرجل الجريح، فنظر بشيء يشبه العطف إلى عدوّه الملقى على الأرض، وقد حبس صرخات الألم والإجهاد عن شفتيه ولما يكد.

ثم سأله فجأة: «أتراك تستطيع أن تصل إلى هذه الزجاجة لو ألقيتها إليك؟ إن فيها نبيذاً جيداً، وعلى الإنسان أن يجتهد في طلب الراحة ما أمكنه ذلك، فلنشرب ولو كان مقدوراً على أحدنا أن يموت الليلة!».

فقال جورج: «لا، لست أستطيع أن أرى شيئاً فالدم قد جمد على عيني، ثم إني لا أشرب بحال من الأحوال مع عدو لي»!

فصمت ألريش بضع دقائق وأخذ ينصت ـ ساكناً ـ لأنّات الرياح الثقيلة. لقد كانت في رأسه فكرة تنمو ببطء وتزداد قوة كلما نظر إلى الرجل الذي يصارع الألم والجهد بهذا العنف، وأحس ألريش وسط آلامه وشعوره بضعفه، أن البغضاء القديمة الحادة قد بدأت تهبط وتموت.

ونادى رفيقه: «يا أيها الجار، إذا حضر رجالك أولاً فاصنع ما بدا لك، لقد كانت المعركة عادلة، أما عن نفسي فقد غيرت رأيي، فإذا جاء رجالي أولاً فستكون أنت أول من تفك قيوده، كأنك ضيفي. لقد تصارعنا حياتنا كلها كالشياطين حول هذه القطعة من الغابة التي لا تستطيع حتى أشجارها أن تثبت في ليلة عاصفة، وقد رأيت ـ في أثناء تفكيري وأنا ملقى هنا الليلة ـ أننا كنا في ذلك مغفلين، ففي الحياة ما هو أجمل من التغلب في معركة على قطعة أرض، يا أيها الجار، إذا ساعدتني في دفن الأحقاد القديمة فإني... إني أسألك أن تكون لي صديقاً».

ظل جورج زناييم صامتاً لحظة طويلة حتى خُيل لألريش أنه لعله فقد وعيه من شدة الألم والجراح، ولكنه تكلم أخيراً ببطء كلاماً متقطعاً:

ـ تصور كم سيدهش الناس إذا ركبنا معاً إلى السوق! ما من حيّ واحد يذكر أنه رأى أحداً من عائلة زناييم يحادث أحداً من عائلة فون جردفتز حديث صداقة... وما أروع السلام الذي سيضفي بجناحيه على سكان الغابة لو أننا تخلصنا الليلة من أحقادنا... وإذا رأينا نحن أن نقيم السلام بين أسرتينا فليس هناك من يتدخل في قرارنا هذا... ليس هناك دخلاء من الخارج، وستأتي أنت فتقضي ليلة العيد تحت سقفي... وأذهب أنا لأتناول الطعام في قصرك في يوم من الأيام ولا أطلق طلقة واحدة في أرضك إلا إذا دعوتني كضيف، وتأتي أنت فتصطاد الطيور البرية معي في أرضي... ليس هناك في هذه البقعة من يستطيع أن يمنعنا من إقامة السلام إذا رغبنا في إقامته. إنني ما فكرت يوماً في أن أحس نحوك إلا البغضاء والحقد طوال حياتي، ولكني أعتقد أنني أنا أيضاً قد غيرت رأيي في المسألة في نصف الساعة الأخير... ألريش فون جردفتز... سأكون صديقك»!.

ثم سكت الرجلان برهة طويلة كانا في أثنائها يديران في رأسيهما التطورات العجيبة التي سيؤدي إليها هذا الصلح الفذّ. وبقيا ـ في الغابة الباردة المكفهرة حيث تعول الريح وتصفّر خلال الأغصان العارية وحول الجذوع الخاوية ـ في انتظار الرجال الذين سيحضرون لنجدة الطرفين. ودعا كل منهما ربه في سرّه أن يكون من حظ رجاله أن يأتوا مبكرين، حتى يتمكن من إظهار مروءته لعدوه الذي أصبح صديقه!.

فلما سكنت الريح قليلاً قطع السكون ألريش بقوله:

ـ فلنرسل صيحاتنا طلباً للنجدة. فربما استطاعت أصواتنا في هذا السكون أن تصل إلى مدى أبعد.

فقال جورج: «لن تمتد أصواتنا بعيداً بين الأشجار والأغصان الملتفة. ومع ذلك فلنحاول معاً».

ثم صاح الاثنان معاً صيحة طويلة ممطوطة، وبقيا بضع دقائق ينتظران عبثاً صيحة الجواب. فعاد ألريش يقول: «فلنصح معاً مرة أخرى».

ثم قال بعد قليل: «أظن أنني سمعت شيئاً في هذه المرة». فقال جورج بصوت مبحوح: «لم أسمع شيئاً إلا الريح المعولة».

وساد الصمت مرة أخرى عدة دقائق. ثم صاح ألريش صيحة ملؤها السرور:

ـ أستطيع أن أرى أشباحاً آتية نحونا خلال الغابة. إنهم قادمون من الطريق الذي اتخذته من سفح التل...

ثم صاح الرجلان صيحة أودعا فيها كل ما بقي من صوتهما من قوة. وعاد ألريش يقول:

ـ إنهم يسمعوننا! لقد توقفوا، إنهم يروننا الآن، وها هم أولاء ينحدرون نحونا من جانب التل.

فسأل جورج: «كم من الرجال ترى؟».

وأجابه ألريش: «لا أستطيع أن أحدد بالضبط، تسعة أو عشرة».

فقال جورج: «إذن فهم رجالك، فقد كان معي سبعة فقط».

وقال ألريش مسروراً: «إنهم قادمون بأقصى ما يستطيعون من قوة، يا لهم من فتية شجعان!».

فسأله جورج: «أهم رجالك؟».

وحين وجد ألريش لا يجيب، كرر السؤال ثانية بصبر نافد، فأجابه ألريش: «لا».

قالها وهو يضحك ضحكة رجل لم يفقده الهول ترابط أعصابه.

فسأله جورج وهو يحاول بشدة أن يفتح عينيه ليرى ما حوله: «من هم إذن؟».

ـ الذئاب...!

الفهرس

الإهداء 5

تقديم الكتاب 7

حاجة الإنسان من الأرض لتولستوي 11

زوجَة رَجل آخر لدستويفسكي بتصرف خفيف 33

لإرضاء زوجته لتوماس هاردي 87

الزوجة الثانية عشرة لسومرست موم 111

رسالة من امرأة مجهولة ستيفان زفايج 145

الدُّخلاء هكتور هيومنرو الملقب بالساقي (ساكي) 197

الفهرس 207

من سخرية "حاجة الإنسان إلى الأرض" حيث يبدو لك أنه الأب الودود يشفق على أبناء الفناء من مطامعهم ومطامحهم وأقصى حاجتهم من الأرض ذراع في ذراع!

إلى سخرية "دستويفسكي" الشيطانية العابثة في أقصوصته "زوجة رجل آخر" حيث يبدو لك أنه يمسك ببطله المسكين و"يلعبه كالأراجوز" في غير شفقة ولا مرثية!، ولكن في غير لؤم ولا موجدة كذلك!

ومن سخرية "سومرست موم" النافذة الجارحة في أقصوصته "الزوجة الثانية عشرة" حيث يبدو لك كأنما يشرّح جثث أبطاله في لذة عميقة، محاولاً أن يكشف عن مواضع النقص في نفوسهم، هازئاً بالهالات التي تحيط بها الإنسانية نفسها، من المثل والمبادىء والفضائل.

إلى سخرية "توماس هاردي" المتشائمة الكامدة في أقصوصته "لإرضاء زوجته"، حيث لا ينكر الفضائل ولا المثل. ولكنه يرى وجه الحياة الكامد الحزين، وتصرفات القدر القاسية المتجهمة مع الحياة والأحياء.

إنه يسخر من الحياة نفسها، حين يسخر سومرست موم من الأحياء.

وإلى جانبهما سخرية "زفايج" ذات الشواظ الحامي والشاعرية الحارة. السخرية التي تصور القدر جلاداً للنفس الحساسة الشاعرة في "رسالة من امرأة مجهولة"

وأخيراً تجد أقصوصة "الدخلاء" لهكتور هيومنرو الملقب بالساقي (ساكي)... إنها تذكرني بأقصوصة تولستوي "حاجة الإنسان من الأرض" ولكن لا إن في "تولستوي" رحمة النبيين. أما "ساكي" فحين يسخر بمطامح الإنسان ومطامعه ويتركك في ذهول السخرية، وعلى فمه ابتسامة باهتة ليس فيها شيء من الحنان!